نحيب الذات وإشراقات الفن
في
أدب الغرباء للأصفهاني

بقلم :

الأستاذة الدكتورة

مؤمنة حمزة عبد الرحمن عون

أستاذ الأدب والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات

بالإسكندرية

(أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لأبي الفرج الأصفهاني حضور فاعل في الدراسات الأدبية والنقدية، وقد دأب الدارسون على تناول أبي الفرج من خلال "الأغاني"، كواحدة من كبريات المدونات التراثية في الأدب العربي، بينما لم نجد في أوساط تلك الدراسات أثرا يذكر ـ فيما نعلم ـ لآخر منجزات أبي الفرج، محور دراستنا، وهو كتاب "أدب الغرباء". ذلك الكتاب الذي تفرد في موضوعه، وصنع منه مبدعه جدارية المغتربين الكبرى؛ حيث جمع فيه شجو الغرباء ونبض قلوبهم الذي أصاخت له الإنسانية من خلال كتاباتهم على الحوائط والأحجار والأبواب والأشجار، التي قُدر لها أن تُحفظ في ذاكرة التاريخ على يد مغترب مبدع كأبي الفرج الأصفهاني.

ولعل الباحث يطالع نتفا متفرقة في مصادر التراث من أخبار الكتابة على الحوائط بالوسائل البدائية كالفحم وغيره، كما في نفح الطيب للمقري، وحياة الحيوان الكبرى للدميري، والمحاسن والأضداد للجاحظ، والفرج بعد الشدة للتنوخي، وخزانة الأدب للبغدادي، لكن أحد تلك المصادر لم يكن وقفا على ذلك الموضوع، فضلا عن تناولهم لكتابات فئات متعددة كالمسجونين، والعشاق، وأصحاب المعتقدات المخالفة دينيا أو سياسيا، وغير ذلك، بينما تفرد أبو الفرج في تخصيص مصنفه لجمع كتابات الغرباء على ما أتيح لهم من وسائل خارجية تعينهم على البوح بمكنون صدورهم.

(ب)

والكتابة على الجدران والشجر والحجر وغيرها من مكونات الفضاء الخارجي هي صرخة مدوية في أذن المجتمع يطلقها المهمشون من ذوي المظالم، والمسجونين، والعشاق، وأصحاب المذاهب المخالفة، ممن يعانون القمع والتهميش، وغالبا ما يلجأ هؤلاء إلى الغربة من باب "وداوني بالتي كانت هي الداء". فيتوغلون في مجاهل أخرى من التهميش، ومن ثم فإن كتابات الغرباء مطلب وجودي شكلته حاجتهم الملحة إلى التعبير عن أنفسهم، ورغبتهم العارمة في جذب أنفسهم من أطراف الهامش إلى بؤرة المركز. واتخذوا إلى ذلك كل سبيل، فاستعملوا ما أتيح لهم من أدوات بدائية كالفحم والأحجار ونحوهما؛ ليسجلوا حكمتهم وأقاصيصهم، ويندوا بالتقاليد القاسية، ويبوحوا بأناتهم، ويخرجوا بما وجدت به قلوبهم إلى الفضاء الرحب، مدركين أثر اجتماع الكلمة والصورة في نفوس المتلقين، بما يضمن لهم تفاعل المجتع ويؤمنهم طائلة المحاسبة. وأكاد أزعم أنه ما من قلب إلا واكتوت سويداؤه بلفحة من هجير الغربة، ما جعل موضوع الدراسة مطلبا وجدانيا ملحا، فضلا عن قيمتها الفنية، فوسمتها بعنوان: "تحيب الذات وإشراقات الفن في أدب الغرباء للأصفهاني".

وقد استدعت طبيعة الدراسة لأثر قديم كهذا استخدام بعض المصطلحات النقدية الحديثة كالمتن، والهامش، والجدارية، والصورة البصرية، لتعالقها مع موضوعه، مع التنبه إلى ما قد يقع فيه الدارس من شرك تجاوز خصوصية آداب الأمم، بالتطبيق القسري لنظريات ومفاهيم حديثة في التعامل مع نص تراثي، فجاء استخدامنا لتلك المفاهيم مقترنا بوعي حيثيات النص القديم وظروفه، بما لا يأتي على اجتهاد الباحث في السعي إلى تكوين رؤية جديدة لنص قديم، لتكون الدراسة حلقة من حلقات التثاقف بين الحضارات وتلاقح الأفكار، مع الحفاظ على معالم هوية النص التراثي.

(جـ)

وسعيا إلى الإحاطة بمقتضيات الموضوع فقد أتت الدراسة مقسمة على ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد، وتعقبها خاتمة، وثبت بالمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

ففي التمهيد تمت الإشارة إلى المسميات المختلفة للكتاب محل الدراسة في كتب التراث، مع الوقوف على بعض الجوانب في شخصية أبي الفرج الباعثة على تاليفه للكتاب، فضلا عن الإشارة إلى مخطوطة الكتاب.

وجاء المبحث الأول بعنوان: "إضاءة على كتاب أدب الغرباء"، حيث ألقى الضوء على أهمية كتاب "أدب الغرباء"، وطرافة فكرته التي عملت على جذب الهامش إلى المتن، كما تناول منهجية أبي الفرج في سرد أخبار الغرباء، مع توضيح المصادر التي استقى منها أخباره، والأدوات المستخدمة في الكتابة، والأماكن التي كتب عليها الغرباء إبداعاتهم، مع الاستئناس بنماذج من الكتاب تدعم ما تم عرضه.

وأتى المبحث الثاني بعنوان: "ملامح نحيب الذات في أدب الغرباء"، حيث تناول الغربة موضحا مفهوما وجذورها التاريخية، وأحصى فئات الغرباء بغية التعرف على تصنيفاتهم المكونة لذواتهم المنتحبة، ثم عرض المبحث وجدانيات الغرباء المعبرة عن شجوهم والمنبعث منها نحيبهم.

بينما جاء المبحث الثالث بعنوان "الظواهر الفنية في أدب الغرباء"، حيث استخلص المبحث أبرز الظواهر الفنية التي تميز بها أدب الغرباء شعرا ونثرا، فتناول السمات الأسلوبية لنثر الغرباء، والسمات الفنية لشعرهم، مع إلقاء الضوء على حواريات الغرباء على الجدران الأحجار وغيرها، واختتم المبحث بتناول النزعة القصصية في أخبار الغرباء، مع سوق نماذج لكل ما تمت الإشارة إليه.

وأشفعت المباحث الثلاثة بخاتمة تتضمن أبرز النتائج التي انتهت إليها الدراسة، وثبت للمراجع وفهرس للموضوعات.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التكاملي الذي يمتاح من مناهج عدة ، فأفادت من المنهج الوصفي التحليلي الذي يعني بوصف الظاهرة الأدبية وتصنيفها، وتحليل مراميها، كما استعانت بالمنهج الاستقرائي في الربط بين بعض المعلومات والوصول إلى استنتاجات مبنية عليها، فضلا عن المنهج النفسي الذي يعين على الكشف عن طبائع نفوس الغرباء وبواعث حنينهم إلي الوطن والحبيبة والأهل والذكرى.

التمهيد

ـ عنوان الكتاب.

ـ المؤلف.

ـ مخطوطة الكتاب.

عنوان الكتاب

ذُكر كتاب "أدب الغرباء" ضمن مؤلفات أبي الفرج في عدة مصادر بعناوين عدة؛ حيث ذكره ابن النديم في فهرسه، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وياقوت الحموي في معجمه، وابن خلكان في وفاياته، وتناقله من أتى بعدهم بقرون مثل حاجي خليفة في كشف الظنون، ومن حذا حذوه من الباحثين المحدثين. وقد أوردوا الكتاب بعناوين مختلفة الصيغ، فسماه ابن النديم: "أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب" وورد عند الخطيب باسم: "آداب الغرباء" وذكره ياقوت باسم "أدب الغرباء" مرة، و"أدباء الغرباء" مرة أخرى.

فقال ابن النديم في سياق الحديث عن مصنفات أبي الفرج: "وله من الكتب كتاب «الأغاني الكبير» نحو خمسة آلاف ورقة، كتاب «مجرد الأغاني»، كتاب «مقاتل آل أبي طالب»، كتاب «تفضيل ذي الحجة»، كتاب «الأخبار والنوادر»، «كتاب أدب السماع»، كتاب «أخبار الطفيليين»، كتاب «أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب» ...." [1] فقد ذكره ابن النديم بعنوان "أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب" ولم يذكره بهذا العنوان كاملا ـ فيما رأينا ـ سوى ابن النديم.

بينما أورده الخطيب البغدادي بعنوان "آداب الغرباء"، فقال فى ترجمة أبى الفرج: "كان عالما بأيام الناس والأنساب والسيرة، وكان شاعرا محسنا، والغالب عليه رواية الأخبار والآداب، وصنف كتبا كثيرة منها: «الأغانى الكبير»، و«مقاتل الطالبيين»، و«أخبار الإماء الشواعر»، وكتاب «الحانات»، وكتاب «الديارات»، و«آداب الغرباء»، وغير ذلك."[٢]

أما ياقوت الحموي فقد ذكر الكتاب باسم أدب الغرباء فى سياق استدلاله على تصويب تاريخ وفاة أبى الفرج، فقال: "وفاته هذه فيها نظر وتفتقر إلى التأمل، لأنه ذكر فى كتاب "أدب الغرباء" من تأليفه: حدثنى صديق قال: قرأت على قصر معز الدولة بالشماسية يقول فلان بن فلان الهروي، حضرت هذا الموضع فى سماط معز الدولة والدنيا عليه مقبلة، وهيبة الملك عليه مشتملة، ثم عدت إليه فى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، فرأيت ما يعتبر به اللبيب يعنى من الخراب. وذكر في موضعٍ آخر من كتابه هذا قصة له مع صبيٍ كان يحبه

ذكرتها بعد هذا يذكر فيه موت معز الدولة وولاية ابنه بختيار، وكان ذلك فى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، ويزعم في تلك الحكاية أنه كان في عصر شبابه فلا أدري ما هذا الاختلاف؟"

وبعد سطور عدة، ذكر ياقوت الكتاب فى سياق سرد تصانيف أبى الفرج بعنوان: "أدباء الغرباء" فقال: "وتصانيفه كثيرة وهذا الذي يحضرنى منها: كتاب «الأغانى الكبير»، كتاب «مجرد الأغانى»، كتاب «التعديل والانتصاف فى أخبار القبائل وأنسابها» لم أره، وبودي لو رأيته ذكره هو فى كتاب الأغانى، كتاب «مقاتل الطالبيين»، كتاب «أخبار القيان»، كتاب «الإماء الشواعر»، كتاب «المماليك الشعراء»، كتاب «أدباء الغرباء»..."[٣]

وتابع ابنُ خلكان الخطيبَ البغدادي فى تسمية الكتاب "آداب الغرباء"، وذلك فى سياق سرد مؤلفات أبى الفرج، فقال بعد أن تناول كتاب الأغانى: " ومنها: كتاب "القيان"، وكتاب "الإماء الشواعر"، وكتاب "الديارات"، وكتاب "دعوة التجار"، وكتاب "مجرد الأغانى"، وكتاب "أخبار جحظة البرمكى"، و"مقاتل الطالبيين " وكتاب " الحانات " و" آداب الغرباء."[٤] وتابعهما في العنوان نفسه حاجى خليفة فى كشف الظنون[٥].

ومع اختلاف صيغ تسمية الكتاب، وان كانت متقاربة، إلا أن محقق الكتاب الدكتور صلاح الدين المنجد آثر اعتماد العنوان الذي ذكره ابن النديم " أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب"؛ معللا لذلك بكونه معاصرا لأبى الفرج، لكنه اكتفى بصدرها فقط، فنشر الكتاب للمرة الأولى بدار الكتاب الجديد في بيروت عام ١٩٧٢ م، بعنوان "أدب الغرباء". وقد وقع الكتاب في ثمانين صفحة من القطع المتوسط، تسبقها مقدمة للمحقق قدم بها للكتاب استغرقت تسع عشرة صفحة، أشار فيها إلى مجموعة من المصادر القديمة والدراسات الحديثة التي ترجمت لأبي الفرج، وأوضح أهمية الكتاب، وبين كيفية حصوله على مخطوطته النادرة، وناقش تاريخ وفاة أبي الفرج وفق الأخبار الواردة في الكتاب، ثم أوضح منهجه في التحقيق.

المؤلف

أبو الفرج الأصفهاني غني عن التعريف، وهو كما عرفه مجايله ابن النديم "علي بن الحسين بن الهيثم القرشي من ولد هشام بن عبد الملك وكان شاعراً مصنفاً أديباً وله رواية يسيرة وأكثر تعويله كان في تصنيفه على الكتب المستوية الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد وتوفي سنة نيف وستين وثلاثمائة "[٦]

ولا يُذكر أبو الفرج إلا ويذكر كتاب الأغاني، الذي طغى صيته على بقية مؤلفات أبي الفرج، وغض طرف الباحثين عن رحلته مع التأليف والتي بدأت مع كتاب "مقاتل الطالبيين" الذي ألفه عام ٣١٣هـ. وانتهت بكتاب "أدب الغرباء" محل الدراسة. وما بين "مقاتل الطالبيين" و"أدب الغرباء" حصيلة ثرة من العطاء العلمي تمثلت في عناوين ثلة من المصنفات التي ورد ذكرها في بطون كتب التراث، والتي لم يصل إلينا منها سوى ثلاث كتب هي: "مقاتل الطالبيين"، و"الأغاني"، و"أدب الغرباء"، أما بقية هذه الكتب فلا تزال في عداد المفقودة، إذ لا نعرف من أمرها شيئاً سوى أسمائها وعناوينها. "ولم يحرص أصحاب التراجم القديمة على ذكر قائمة كاملة أو قريبة من الكمال بمؤلفاته. فمنهم من عدَّ المشهور منها، ومنهم من اكتفى بذكر ما رآه، ومنهم من اقتصر على عدد قليل جداً منها، كما أن منهم من استغنى عن ذلك كله بالإشارة إلى كثرة تآليفه وكتبه، ولعل أوسع قائمة بأسماء هذه الكتب تلك التي ذكرها ياقوت الحموي في معجمه، إذ عدّ فيها أسماء خمسة وعشرين كتاباً"[٧].

ومع ما تميز به أبو الفرج من سعة العلم وكثرة التصانيف، فقد كان رقيق القلب مرهف الحس، يرتبط وجدانيا بمفردات الحياة من حوله، ومن ذلك قصته مع ديك له، والتى خلدها شعره فيه، إذ كان له ديك جميل مختال كالطاووس محبب إلى نفسه، يبادله المشاعر تبادل الصديق الأثير، ثم فجعه الموت بديكه هذا، فرثاه أحر الرثاء. متفجعا عليه تفجعا منبعثا من نفس مكلومة، وعكف على نظم قصيدة مطولة "تعد من عيون الشعر العربى في رثاء الحيوان، وصار يبكيه كلما أبصر ربعه موحشا، أو سمع صياح ديك:

أبكى إذا أبصرت ربعك موحشا ... بتحنن وتأسف وشهيق
ويزيدني جزعا لفقدك صادح ... في منزل دان إلي لصيق

قرع الفؤاد وقد زقا فكأنه نادى ببين أو نعى شقيق
فتأسفي أبدا عليك مواصل بسواد ليل أو بياض شروق
وإذا أفاق ذووا المصائب سلوة وتصبروا، أمسيت غير مفيق"[٨]

ولما كان الشجا يبعث الشجا فلعل أبيات أبى الفرج فى رثاء ديكه تتعالق في تجربتها الشعورية مع أبيات متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك:

لقد لامنى عِنْد الْقُبُور على البكا رفيقى لتذراف الدُّمُوع السوافك
فَقَالَ أَتَبْكِى كل قبر رَأَيته لقبر ثوى بَين اللوى فالدكادك
فَقلت لَهُ إِن الشجا يبْعَث الشجا فدعني فَهَذَا كُله قبر مَالك[٩]

فموقف أبي الفرج من موت ديكه والذي وصل عنده إلى حد التعالق مع تجربة من أقسى تجارب الرثاء في الأدب العربي يشير إلى رهافة حسه، وعمق الوعيِ الوجداني لديه، وهذا لاينفك عن بواعث اغترابه وتفاعله مع أدب الغرباء.

ولم تسر حياة أبي الفرج على وتيرة واحدة، كشأن الدنيا، خاصة مع أرباب القلم المؤثر أولئك الذين يقتربون من المتنفذين وأصحاب السلطة، فكثيرا ما تدور عليهم الدوائر، وهكذا كانت حياة أبي الفرج، فقد تبدلت أحواله واستبدل بالغنى فقرا، وبالوصل هجرا، وبالوطن غربة، فكان أبو الفرج يجول في مجالس الوزراء ويصول "يقص ويروي وينقد ويتندّر وينثر من أدبه ويفيض من علمه فكان مجلس المهلبي من أسباب نباهة شأنه وشيوع ذكره، كما كان بر المهلبي من أسباب رفاهية عيشه وتفرغه للعلم والأدب، لكنه مع ذلك لم يخل من هجوه وكان يعلم أنه يهجوه سرا فطلب إليه وقد سكرا ذات ليلة أن يهجوه جهرا في قصة نطويها كما يطوي بساط السلاف بما فيه، وقد رأى أبو الفرج منه بعض ما يكره فظن أنه رمى به من حالق، بعد أن أنعم عليه الخالق، فقذفه بهذين البيتين:

أبعين مفتقر إليك رأيتني بعد الغنى فرميت بي من حالق
لست الملوم انا الملوم لأنني أملت للإحسان غير الخالق

يومئ أبو الفرج إلى ما كان من فقر الوزير أيام كان يشتهي اللحم ولا يقدر على ثمنه فيتمنى الموت ويقول من أبيات:

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى يخلصنى من العيش الكريه
إذا أبصرت قبرا من بعيد وددت لو انّنى مما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حرّ تصدق بالوفاة على أخيه

وتفعل هذه الإشارة فعلها فى نفس المهلبى ولكنه يذكر إحسان الخالق إليه وأنه أصبح وزيرا رافه العيش.... يذكر المهلبى ذلك كله ويذكر صديقه أبا الفرج فيعفو عنه ويغفر له هجاءه، ويتصل حبل إخائهما حتى يقطعه موت المهلبي في سنة ٣٥٢ هـ ثم يلحق به أبو الفرج ".[١٠]

ولم ينم عتابه عن كراهية أوضغينة لصديقه المهلبي، الذي وقف له مسنادا وكان له خير عون في أيامه الحالكة، وما أكثر أيام الأصفهاني الحالكة! حتى إذا ما أزيح الوزير لوشاية واش أو حسد حاسد ليشغل الوزارة "ابن البُريدي" انبرى أبو الفرج هاجيا للوزير الجديد، وفاء لصديقه:

يا سماءُ اطبقي ويا أرض ميدي قد تولَّى الوزارة ابنُ البريدي
جلَّ خطبٌ وحلَّ أمـــــرٌ عُضالٌ وبلاءٌ أشاب رأسَ الولـــيدِ[١٠]

ولعل هذه اللقطات من حياة أبي الفرج تكشف عن حياة ملؤها المفارقات، وشخصية عركتها التجارب، ونفس أبية تنأى بعيدا إذا لم تجد مكانها، ويرفد ذلك كله ذائقة أدبية مميزة، تفاعلت مع الأحداث، فنتج عن ذلك كله ثروة أدبية أثرت المكتبة العربية.

مخطوطة الكتاب

وتكمن أهمية مخطوطة كتاب "أدب الغرباء في أنها أماطت اللثام عن عمل من أعمال أحد نوابغ الفكر العربي، والذي لم يصل إلينا من تصانيفه

سوى كتابين، وجاء "أدب الغرباء" ليكون ثالث ثلاثة تصانيف حظيت بهم المكتبة العربية، ويذكر الدكتور صلاح الدين المنجد أنه دعي عام ١٩٦٥م إلى جامعة طهران في كلية الإلهيات لإلقاء عدد من المحاضرات، وهنالك تعرف على عميد الكلية الأستاذ بديع الزمان فروزنفر المتخصص في الشعر العربي والفارسي. والذي أخبره باقتنائه نسخة فريدة ولعلها الوحيدة في مكتبات العالم من مخطوطة (أدب الغرباء) للأصبهاني، وأطلعه عليها.

يقول الدكتور المنجد: " فذكرنا أبا الفرج وما كان له من فضل على الأدب العربي. فقال لي: عندي كتاب له، أنا ضنين به لنفاسته، ولم أعلم أحدا بوجوده عندي، لكنك تستحق أن تراه. وقام إلى خزانته، فأخرج مخطوطا وقال لي: هذا كتاب أدب الغرباء، إنها نسخة فريدة لعلها الوحيدة في مكتبات العالم" (١١)

والمخطوطة، كما وصفها المحقق، تقع في خمس وعشرين ورقة، نسخت بخط نسخي سقيم، بيد ناسخ مجهول، وقد استنتج المحقق أن يكون الناسخ أعجميا؛ لكثرة ما في المخطوطة من أغلاط تشي بأن ناسحها يرسم الحروف دون وعي أو فهم بدلالاتها، وانتهى من نسخها في تاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٢٩٣هـ – ١٨٧٦م، وصدرها بعنوان "كتاب أدباء الغرباء لصاحب الأغاني"(١٢).

المبحث الأول

إضاءة على كتاب أدب الغرباء

- أهمية الكتاب.
- فكرة الكتاب وجذب الهامش إلى المتن.
- سبب تأليف الكتاب.
- مصادر أخبار الكتاب.
- أدوات الكتابة وأماكنها.

أهمية الكتاب

لكتاب "أدب الغرباء" مزايا عدة تجعله جديرا بالدراسة، وقد ذكر المحقق كثيرا من هذه المزايا في تقديمه للكتاب، وتأتي طرافة الموضوع وجدته في صدارة هذه المزايا؛ فأبو الفرج لم يتتبع في كتابه شعر شاعر بعينه، ولا فئة من فئات الشعراء تجمعها خصائص مشتركة، وإنما تصدى لجمع شتات النفس البشرية من خلال خطرات سجلها مغتربون على الجدران أو الأحجار أو الأشجار، أو الأبواب، أو غيرها، يقول أبو الفرج حول موضوع الكتاب: "وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرا في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذ كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد، وعلامة بينهم في كل محضر ومشهد".(١٣)

وكذلك من مزايا الكتاب التي نبه إليها المحقق كشفه عن جوانب جديدة من حياة أبي الفرج وأهمها تصحيح تاريخ وفاته؛ إذ المتداول بين الكتّاب أنه توفي عام ست وخمسين وثلاثمائة، بينما شكك ياقوت الحموي في هذا التاريخ مستشهدا بروايات من كتاب "أدب الغرباء"، منها ذكر أبي الفرج لموت معز الدولة وتولية ابنه بختيار، وكان ذلك سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وذكر أبو الفرج أن ذلك الحدث كان في شبابه. مما يؤكد أنه توفي بعد هذا التاريخ بسنوات عدة. وقد اكتفى ياقوت بأن أبدى تعجبه من هذا الاختلاف، بينما لم يجهد نفسه في تفسيره لتحقيق التاريخ الحقيقي لوفاة أبي الفرج، واكتفى بالإشارة إلى أن التاريخ المتداول فيه نظر.(١٤)

بيد أن المحقق انبرى في تتبع نصوص الكتاب وربط ما بينها من دلالات مستنتجا التاريخ الأنسب لوفاته من واقع تلك النصوص، وانتهى إلى ترجيحه لتاريخ الوفاة الذي ذكره ابن النديم، مخالفا به عامة كتب

التراث في هذا الشأن، حيث ذهب ابن النديم إلى أن أبا الفرج توفي سنة نيف وستين وثلاثمائة، وجزم المحقق أنه توفي بعد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، حيث إن أبا الفرج روى في كتابه حادثة وقعت في تلك السنة، ومن المحقق أن الكتاب دون بعد وقوع تلك الحادثة.[١٥]

ونضيف إلى ما ذكره المحقق من مزايا الكتاب عوامل أخرى لها من الجدة والطرافة ما أكسبه قيما فنية لم تجتمع لغيره من أمهات كتب التراث، أولها تفرد الحالة الوجدانية التي جمعت بين حسي الاغتراب والاختلاء بالذات، فاقترنت غربة المكان بغربة الذات في حالة من صدق الوعي الإنساني أتاحت لكاتبي تلك الأشعار الغوص في أعماق النفس البشرية، والتعبير عن خطراتها في حال تجردها من نوازع الدنيا، ومن ثم لم ترتبط قيمة تلك الأشعار بقائليها؛ فكثير منها مجهول المصدر، ولم ينتقص ذلك من قيمتها شيئا، على خلاف ما عهدنا من ضرورة توثيق نسبة الأشعار إلى قائليها، فقيمة تلك الأشعار في أن كاتبها إنسان يحمل في حناياه ذاتا مؤججة بفعل الاغتراب، بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى.

وثانيها أن أبا الفرج في كتابه هذا أماط اللثام عن وعي المبدع العربي بفن من فنون البشرية الأولى وهو فن الجداريات بأشكالها وأنواعها المبتكرة، إذ قامت الجداريات منذ أن عرفها الإنسان القديم بوظيفة توثيقية لكل ما يمر به في حياته اليومية، فقد كان يجسد كل ما يتعرض له على جدران الكهوف بأبسط الأدوات المتاحة في ذلك الوقت، تعبيرا عما يجول في خاطره، وتطور الأمر عبر حضارات الشرق الأدنى كحضارة بلاد الرافدين، والحضارة المصرية القديمة، والحضارات الهندية والصينية واليابانية والأوربية[١٦].

إلا أن المبدع العربي انتقل بالفن الجداري من طوره التوثيقي إلى طور الكتابة الإبداعية الذي ينم عن درجة من الرقي الفكري والحضاري، فضلا عن تعدد أماكن الكتابة وتنوع أدواتها وفق مقتضيات البيئة.

أضف إلى ماسبق ميزة أخرى لكتاب أدب الغرباء، وهي التفرد بما ورد فيه من أشعار من بين مصادر الشعر العربي القديم؛ حيث إن الكتاب يعد

المصدر الوحيد لكثير من الأشعار المثبتة فيه، نظرا لأنها لم تسمع من أفواه قائليها، ولم تسطر في بطون الكتب، وإنما خرجت من شرنقة الذات لتجوب فضاء الوجدان البشري وتصبح متاحة للجميع، ولم يعن أحد بجمعها في مدونة واحدة ـ فيما نعلم ـ غير أبي الفرج.

فكرة الكتاب وجذب الهامش إلى المتن.

تنم فكرة الكتاب عن حس إبداعي متفرد، تفوق فيه أبو الفرج على ذاته، وغاص في أعماق الذات الإنسانية عبر خطرات المبدعين المغتربين التي سجلوها شعرا على جدران المعابد والمساجد والبساتين، وعلى الشجر والحجر، مستخدمين ما أتيح لهم من أدوات، ليحفروا ما اعتمل به وجدانهم من حس الغربة والاغتراب في تلك الأماكن، وقد لخص أبو الفرج فكرة كتابه في قوله: "وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرا في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذ كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد، وعلامة بينهم في كل محضر ومشهد".(١٧)

لقد حفر الأصفهاني ـ بعمله هذا ـ وجدان المهمشين والمنسيين من الغرباء في ذاكرة التاريخ، فاستحال الهامش متنا.

وحري بالذكر أن مصطلحي المتن والهامش من المصطلحات الحديثة التي ظهرت في سبعينيات القرن العشرين في كنف الدراسات الاجتماعية والاقتصادية، ثم انتقلت بالضرورة إلى الحقل الأدبي العاكس لمختلف جوانب النفس البشرية وما يتعلق بها، ولعل الغرباء أكثر البشر استشعارا بالتهميش والإقصاء خارج دائرة المتن المتمثل في عمق مركزية النسق الإنساني بسياقاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وقد حاول هؤلاء المهمشون أن يخرجوا إلى دائرة الضوء بجذب كافة أطراف المجتمع إلى عمق بوتقة شعورهم، وأتى أبو الفرج ليكلل جهدهم بالنجاح ويخصص لهم

مصنفا يجذبهم من خلاله إلى مركز المتن، ليجعل لهم مكانا مميزا في ذاكرة الثقافية العربية.

لقد فعل أبو الفرج ذلك في القرن الرابع الهجري قبل ما يربو كثيرا على عشرة قرون، ليسبق بذائقته النقدية وحسه الإبداعي علماء الاجتماع المحدثين أمثال أليكسيس دي توكفيل وإميل دوركهايم، والروائيين أمثال فيودور دوستويفسكي وفرانز كافكا، والفلاسفة من أمثال كيركيغارد وفريدريك نيتشه، وكاتبة كجوليا كريستيفا [١٨] التي أصدرت كتابها "غرباء على أنفسنا " عام (١٩٨٨) محاولة من خلاله رصد حالات المنفيين والأجانب والغرباء، وإجراء تحليل نفسي لأدق التفاصيل التي يلاقيها المغتربون كاللغة، وممارستهم لها، وكونها حاجزا نفسيا يسهم في إقصائهم ويعوق تواصلهم مع الآخر، إلى غير ذلك من أشكال المعاناة اليومية لعذابات المغتربين، فقد سبق ابو الفرج هؤلاء جميعا في عنايته بالغربة والاغتراب، وانعكاساتهما على النفس البشرية.

واللافت للانتباه أن أبا الفرج ساوى في حس الاغتراب بين الغرباء من المهمشين المجهولين، والأعلام المبرزين الشهورين الذين أظهر لهم وجها لم يره الناس من قبل، ما جعله يدرجهم في صفوف المهمشين، إنه التهميش الوجداني حينما يجد المرء نفسه غريبا في محل ألفته، ما يولد شعورا باغتراب الذات الذي يفوق في قسوته غربة المكان. فاحتوى الكتاب على ستة وسبعين خبرا للغرباء، بعضها لخلفاء وقادة، كأبي جعفر المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون، والواثق، والمتوكل، والمقتدر بالله، والوزير المهلبي، وبعضها لشعراء كأبي نواسن وأبي العتاهية، وعبد الله بن المعتزن وعلي بن الجهم. والبعض الآخر لغرباء مجهولين جمعه أبو الفرج مما شاهده بنفسه أو رواه له غيره من جداريات على حوائط المساجد والكنائس والأديرة والقصور والدور والمقابر والبساتين، في أقاليم ومدن الحضارة العربية الإسلامية مثل: سامراء والكوفة والبصرة والرها وحمص وظفار والإسكندرية وسمرقند، والشام واليمن والحجاز " تكاد تدور كلها في فلك واحد: غريب مأزوم غلبته الفاقة، أو استبد به الهوى

والشوق لحبيبة شط به المزار بعيدًا عنها، فلجأ إلى التعبير عن معاناته بكتابة أبيات على حائط أو باب أو صخرة، أو ما شابه ذلك"[١٩]

فطرافة الفكرة لا تكمن في موضوع الغربة، وإنما في آلية التعبير عن الموضوع بطريقة تبادل المواقع بين المتن والهامش، مما أكسب الكتاب العديد من القيم الدلالية التى خلا منها غيره من الكتب التي تناولت الحنين إلى الأوطان، وتراثنا العربى غني بها مثل: "حنين الإبل إلى الأوطان" لربيعة البصري، و"حب الوطن" لعمرو بن بحر، و"الشوق إلى الأوطان" لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني، و"حب الأوطان" لأبى الفضل بن أبي طاهر، و"الحنين إلى الأوطان" لموسى بن عيسى الكسروي، و"الحنين إلى الأوطان" لأبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحق الوشاء، و"الحنين إلى الأوطان" للحسن بن عبد الرحمن ابن خلاد الرامهزي، و"الحنين إلى الأوطان" لأبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، و"النزوع إلى الأوطان" لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ابن السمعاني.[٢٠]

سبب تأليف الكتاب:

يشير الأَصبهاني إلى دواعي تأليف هذا الكتاب الناجمة عن أزمة نفسية مر بها فيقول: (أما بعد، فإن أصعب ما ناب به الزمان، ولقي في عمره الإنسان، عوارض الهم ونوازل الغم.. وحدوثهما يكون بأسباب أتمها حالاً في السورة، وأعلاها درجة في القوة، تغير الحال من سعة إلى ضيق، وزيادة إلى نقصان، وعلو إلى انحطاط، والله سبحانه أخبرنا أن ذلك إحدى العقوبات التى تَهَدَّدَ بها وخوف منها، فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ .. وربما قاد الفراغ إلى التشاغل بغير مهم، ودعا التفرد إلى مقاربة النغص، وحملت الحاجة إلى تورط الحتوف، وسهلت المحن ركوب كل مخوف. والذي بي من تقسم القلب وحرج الصدر، يسومانني إلى ما ذكرته، ويبعثانني إلى مثل ما قدمته. فأشغل نفسي في بعض الأوقات بالنظر في أخبار الماضين وأحاديث السالفين، فربما أسلتْ ذا شجن، وتأسَّى

بمتَضَمنها ممتحن، فأنا في ذلك كغريق اللجة بما يجد يتعلق، ويتشبث طلبا للحياة بما لحق".

ويتضح من حديث أبي الفرج أنه كان يقاسي حالة من الاغتراب النفسي، فحاول أن يتأسى بأضرابه من الغرباء الذين نزحوا عن ديارهم مخلفين وراءهم الأهل والخلان، حاملين من الأشجان ما تنوء عن حمله صدورهم، فباحوا بأسرارهم وأودعوا شجوهم جدران الحانات والبساتين والمساجد والمعابد والشجر والحجر.

وهذا يدعونا إلى أن تكون لنا وقفة مع الغربة، نسعى من خلالها ربط جذورها التاريخية بواقعها الذي أنتجها، لنتدبر مليا ذلك الفيض الجامح من المشاعر المضطربة الذي تولده الغربه داخل الإنسان.

أدوات الكتابة:

تعددت أدوات الكتابة التي استخدمها الغرباء في تسجيل خواطرهم بحسب تعدد أحوالهم وما أتيح لهم من وسائل وأدوات الكتابة، فكتب أبو جعفر المنصور بالفحم على حائط قصر عبدويه كما ورد في الخبر الثاني: " ورُوي لنا عن إسحاق بن عبد الله قال: كنتُ في خدم أبي جعفر. فدخل قصر عبدَويْه وأنا معه. فقال: أعطني فَحمةً. فناولته، وكتب هذا الشعر على الحائط ..." وكتب بالفحم كذلك أحد الغرباء المجهولين فيما رواه أبو عبد الله الواسطي الشاعر المعروف بابن الآجرّي في الخبر الخامس إذ يحكي عن فتى غريب التقاه: " فلما كان في اليوم الرابع ودّعني وأخذ فحمة وكتب على حائط البيت شعراً .."

وكتب الخليفة الواثق بالسكين، كما ورد في الخبر الثالث: " فلما انتشى أخذ سكّيناً لطيفاً كانت بين يديه، وكتب على الحائط...."

واستخدم بعضهم الآلات الحادة لحفر كتابته على الصخور، كما في الخبر السادس والأربعين: "ويقال إنَّه وُجد كتابة منقورة في جبل بناحية

اصطخر هذه الكلمات: ربّ مَغْبوطٍ بنعمةٍ وهي داؤه، ومرحومٍ من سَقَمٍ هو شفاؤه، ومحمود علي رخاءٍ بلاؤه."

والقلم والدواة من الأدوات التي استخدمها الغرباء، ففي الخبر السادس والخمسين روى أحد شيوخ البصرة قصة لقائه بفتى غريب عليه أطمار بالية، ومعه دواة وقلم، فلما استنكر عليه الشيخ حاله دار بينهما هذا الحوار: " يا فتى، لمَ قد رضيت لنفسك، مع حسنك وجمالك، بهذا الشقاء؟ فنظرَ إليَّ نظر متعجِّب، ثم قال: شقائي بهذا، أعزَّك الله، أحلى طعماً وأحمد عاقبة، في الأولى والآخرة، من تنعّمك. فقلتُ: وما الدليل على قولك؟ قال: لأنَّك تذلّ، ولا أذلّ. وتخدم ولا أخدم. وتطمعُ ولا أطمع. وأغدو وأروح خليَّ البال قليلَ الاشتغال، وصاحب السرير- فضلاً عنك - في الأهوال. ثم قام فكتب على ساج العبَّارة بالقلم الذي كان في يده هذين البيتين..."

أماكن الكتابة

تعددت أشكال الكتابة وأماكنها بتعدد الفضاءات التي حلق فيها الغرباء محررين مشاعرهم من أسر الذات إلى رحابة المطلق، وكانت الحوائط بأشكالها المختلفة من أكثر المنصات احتضانا لبوح الغرباء، لا سيما حوائط دور العبادة على اختلافها، حيث يخلو الغريب بذاته، وينقطع عن أسباب الدنيا، ويتقرب من ربه، فتفيض روحه بمكنونها في حالة من حالات البوح الصادق، فرأينا منهم من كتب على حائط المسجد الحرام كما في الخبر الحادي والستين، ومنهم من كتب على فناء المسجد الجامع لإحدى المدن كما في الخبر التاسع، فضلا عن أربعة أخبار أخرى كتب فيها الغرباء على حوائط المساجد،[٢١] ومنهم من كتب على حائط كنيسة كما ورد في أربعة أخبار ذكرها أبو الفرج [٢٢] ، ومنهم من كتب على حائط دير كما في الخبر الأربعين.

وتعد المقابر خلوة أخرى يستشعر فيها الغريب ضيقه بالدنيا ودنو أجله، فيكتب على حائط المقبرة ما يجوب بخاطره تجاه الدنيا، كما في الخبرين: الحادي عشر، والعشرين، ويوضح الخبر التاسع والثلاثون أن الكتابة على ألواح القبور من الأمور المعتادة والشائعة، كما يوضح حديث الأصمعي في الخبر التاسع والثلاثين، يقول أبو الفرج: "حدَّثني أبو عمر يحيى بن عمر، قال: حدَّثني أبي قال: حدَّثني أبو مسلم عن الأصمعيّ قال: قرأتُ على الألواح التي على القبور فلم أرَ كبيتين استخرجتُهما من لوحٍ وهُما:

مقيم إلى أن يبعثَ الله خلقه لقاؤك لا يُرْجى وأنت قريبُ

تزيد بلًى في كلِّ يوم وليلةٍ وتُنسى كما تُسلى وأنتَ حبيبُ[٢٣]

وهناك من كتب على حائط بستان كما في الخبر الثاني والسبعين، وبعضهم كتب على حائط قصر كما في الخبر الثاني، والخبر الثالث والعشرين، وكثيرا ما يكتب الغرباء على حوائط البيوت التي دخلوها حيث أورد أبو الفرج تسعة عشر خبرا لكتابات على حوائط البيوت. [٢٤]

وكما كتب الغرباء على حوائط البيوت كتبوا كذلك على أبوابها وعلى أبواب المدن، وقد أورد أبو الفرج خمسة أخبار للكتابة على الأبواب. [٢٥] وكتبوا على أجزاء من خشب المركب بوصفها وسيلة السفر عبر الرحلة البحرية، و أداة النجاة من الغرق كما في الخبرين السادس والخمسين، والتاسع والستين.

ويعد الحجر من عناصر الطبيعة التي احتضنت مشاعر الغرباء، وحفروا عليه مشاعرهم الغائرة في صدورهم، فلانت لهم الأحجار وأحالوها إلى قلوب نابضة بأحاسيسهم على مر الزمن، وقد حكى أبو الفرج اثني عشر خبرا كتب فيها الغرباء على الحجر.[٢٦]

واتخذ الغرباء من منارة الإسكندرية منصة للإعلان عن أنفسهم، وحفر وجداناتهم في ذاكرة التاريخ كما يوضح الخبر الثامن، ففي أعلاها موضع تتزاحم فيه خطوط الغرباء منذ القدم، ويحرص كل غريب على أن يجعل لنفسه موضعا بين الغرباء يخطه بيده؛ ليكون له أثر باق على مر الزمن.

ومن المفارقات أن نجد الشجر صنوا للحجر في حفظ خلجات الغرباء، وإذاعتها على الناس بعد أن كانت حبيسة صدورهم، وكأن الطبيعة بكافة مكوناتها، الجامدة والحية، تأسى لحال الغريب وتؤازره، فقد كتب بعضهم على السرح (الشجرة الطويلة العظيمة)، يخاطبها ويستنطقها ويدعو لها بالسقيا ويبوح لها بتباريح الهوى، وعاد ليجد من يرد عليه بالكتابة كذلك على الشجرة ذاتها، يقول أبو الفرج: " خرج عبد الله بن جعفر مُتنزّهاً، فأدركه المقيلُ فقال تحت شجرة. فلما أراد الركوب كتب على الشجرة:

خبّرينا، خُصِصْتِ يا سَرْحُ بالغيْـ ـثِ بصدقٍ، والصدق فيه شفاءُ
هـل يموتُ المحبُّ من ألم الحبـ ـب وهل ينفعُ المحبَّ اللقاءُ

ثم ركب مُتَنزّهاً، فرجع فقال تحتها، وإذا أسفل كتابته مكتوب :

إنّ جهلاً سُؤآلُك السرحَ عمّا ليس يوماً عليك فيه خفاءُ
ليس للعاشق المحبِّ من العيشِ سوى منظر الحبيب دواءُ[٢٧]

مصادر الكتاب

جمع أبو الفرج أخباره من مصادر عدة تلتقى جميعها فى تصوير أحوال الغرباء، فبعضها كتابات قرأها بنفسه، وبعضها أخبار رويت له، وقد أشار في مقدمته إلى المصادر التي اعتمدها في جمع أخباره فقال: (

وجمعت فيه ما وقع إليّ وعرفته، وسمعت به وشاهدته، من أخبار من قال شعراً في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه ، ونازح الدار عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذ كان ذلك عادة الغرباء فى كل بلد و مقصد، وعلامة بينهم فى كل محضر ومشهد". وبناء على ما ذكره أبو الفرج يمكن تصنيف مصادر الأخبار فى الكتاب إلى شقين: أخبار اطلع عليها أبو الفرج وجمعها بنفسه، وأخبار رويت له من آخرين، وفيما يلي عرض لتلك المصادر.

أخبار اطلع عليها أبو الفرج وجمعها بنفسه

والأخبار التى اعتمد فيها أبو الفرج على قراءته الشخصية متنوعة المصادر؛ فمنها ما قرأه على فناء مسجد، كما فى الخبر التاسع، يقول أبو الفرج: "وقرأت على فناء المسجد الجامع بمتوث، وهى مدينة بين سوق الأهواز وبين قُرْقوب، عند اجتيازى بها مكتوبا: حضر المؤمل بن جعفر البندنيجى فى شهر رمضان من سنة سبع وعشرين وثلاث مئة وهو يقول: كنا نسمع أهل العلم يقولون: فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت الغربة وفقد الأحبة.

وجملة الأمر أن الذي عرفته من حال الدنيا أنه لا يفي فرحها بترحها، فقلت:

يامن على الدنيا بجاذب ... وعلى زخارفـــها بغاضب
لا تطلبن وصالـــــــها ... ليست لصاحبها بصاحب
بينا تراهـــــــا عنده ... إذ فارقته ولـــــــم تراقب
إنى خبرت حديثـــــــها ... يا صاح من طول التجارب

وإذا تحته مكتوب بغير ذلك الخط:

صدقت صدقت وعندي الخبر ... سأحذر منها ركوب الخطر

وأحمل نفسي على حالـــــة فإما انتفاع وإمـــــا ضرر"[٢٨]

وأثناء وجود أبي الفرج في المسجد الجامع لقرية تُدْعى "دسكرة الملِك" إحدى القرى الواقعة في طرق خراسان، استرعى انتباهه ما خطه أحد الغرباء على حائط المسجد، يقول أبو الفرج في الخبر الثاني عشر: "وقرأت على حائط مسجد الجامع بدسكرة الملِك: حضر فلان بن فلان الصروي في سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة، وهو يقول:

سقى الله أيامَ التواصل غيثَه وردَّ إلى الأوطان كل غريب

فلا خير في دنيا بغير تواصل ولا خير في عيش بغير حبيب"[٢٩]

ومن الأخبار ما قرأه أبو الفرج على حائط شاهد الدير، وشاهد الدير هو البيت الذي يبنى على يمين الكنيسة يوضع فيه ذخائر الشهداء، وفي ذلك يقول: "وخرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى – رحمه الله – ماضيين إلى دير الثعالب في يوم من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للنزهة ومشاهدة اجتماع النصارى هناك والشرب على نهر يزدجرد الذي يجري على باب هذا الدير. فينا نحن نطوف الدير، ومعنا جماعة من أولاد الكتّاب النصارى وأحداثهم، وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش كما يقال، تتمايل وتتثنى كغصن ريحان في نسيم شمال، فضربت بيدها إلى يد أبي الفتح وقالت: يا سيدي، تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط بيت الشاهد... ".[٣٠]

كما أثبت أبو الفرج في أخباره ما قرأه على الجدران في أحد الدور القديمة، فيقول في الخبر الحادي والأربعين: " وخرجنا يوماً من دارنا بكرم المعرش، فاجتزتُ بدار أبي محمد المادرائي الكاتب. وقد كان الخرابُ استمرَّ عليها، فرأيتُ على الجصّ مكتوباً:

يا مَنْزِلَ القومِ الذين تفرَّقتْ بهم المنازل

أصبحت بعد عمارةٍ قَفْراً تخرّقك الشمائل

فلئن رأيتُكَ موحشاً فيما رأيتَ وأنتَ آهل"[٣١]

ومما قرأه أبو الفرج على حائط بستان ما ذكره في الخبر الحادي والثلاثين: "وقرأت أنا أيضاً على حائط بُستان على نهر الأُبّلة هاذين البيتين:

وما زاد قربُ الدار إلاّ صبابةً إليكِ، ولكنَّ المزارَ بعيدُ
فلا يُبْعدنكِ الله يا فَوْزُ إنَّني أبيتُ وقلبي باللقاءِ عميدُ

وتحته مكتوب: إن كان لك بختٌ سَتَفْطن، وإن فطنتْ وتغافلتْ فما حيلتي؟"[٣٢]

ومن المصادر التي استقى منها أبو الفرج أخباره ما قرأه مسطورا في الكتب، كما في الخبر التاسع والخمسين، يقول أبو الفرج: (وقرأتُ في كتاب صنَّفه القاضي أبو الحسين عمر بن محمد بن يوسف سمَّاه (كتاب الفرج بعد الشدَّة). قال: رُوي لنا عن العتبي قال: حدَّثني بعض مشايخنا قال: أتيتُ السند، فدخلتُ خاناً، فإنِّي لأدورُ فيه إذ قرأتُ كتاباً في بعض أروقته: يقول عليّ بن محمد ابن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ: مشيتُ إلى هذا الموضع حافياً، حتَّى انتعلتُ الدم، وأنا أقول:

عسى مشربٌ يصفو فيروي ظَمَاءةً أطال صداها المشربُ المتكدّرُ
عسى بالجلودُ العاريات ستكتسى وبالمستذَلّ المُسْتضامِ سيُنْصَرُ
عسى جابر العظم الكسيرِ بلطفه سيرتاح للعــظم الكسير فيجبرُ
عسى الله، لا تيأس من الله إنَّه يهونُ عليه ما يجلّ ويكبرُ".[٣٣]

وكما أشرنا سابقا، لم تكن غاية أبي الفرج من تلك الأخبار توثيقية بقدر ما كانت وجدانية إبداعية؛ لذا نجده في الخبر السادس يذكر أنه قرأه

في كتاب دون أن يسمي الكتاب أو صاحبه، فيقول: "وقرأتُ في كتاب: خرج عبد الله بن جعفر متنزها، فأدركه المقيل فقال تحت شجرة..." [٣٤]

وكانت الرقاع من بين المصادر التي جمع منها أبو الفرج أخباره، ففي الخبر العاشر يقول: "وكنت بجامع الرصافة في مدينة السلام يوم جمعة ... فمرت بي رقعة قد حذف بها، كما تفعل العامة برقاع الدعاء. فأخذتها غير معتمد، فإذا فيها بخط مليح في معنى خطوط الكُتَّاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

رحم الله من دعـــا لغريب مُدْنَفٍ قد جـــــفاه كل حبيب

ورماه الزمان من كل قطر فهو لا شك ميت عن قريب[٣٥]

أخبار رويت لأبي الفرج

تمثل الرواية الشق الثانى من مصادر الأخبار فى كتاب أدب الغرباء، وكان أبو الفرج ـ فيما روى له من أخبار ـ حريصا على ذكر سند الرواية حتى يصل إلى مصدر الخبر، لكنه لم يجهد نفسه فى التثبت من صحتها، كما لم يبد رأيه فيما جمع من أخبار، ولم يعقب عليها بشرح أو رفض أو قبول، حتى وان غلبت على بعضها مسحة غرائبية؛ إذ أن هدفه من الكتاب رسم صورة كاملة لأحوال الغرباء كما صورتها آدابهم، ولم تكن غايته تأريخية أو توثيقية.

وقد تعددت طرائق الرواية وأسانيدها في الكتاب، فهناك أخبار يرويها لأبي الفرج الشخص الذي شاهدها أو وقعت له، وقد ينص على اسم محدثه فيكون معلوما للقارئ، وقد لا يُعنى بذكر اسمه ويكتفي بالإشارة إليه فيظل مجهولا، وهناك أخبار أتت عن طريق سند من الرواة،

وإن كان أبو الفرج كما ذكرنا لم يعن بالتثبت من صحة تلك الأخبار أو موثوقية أسانيدها، إلا أنه كان حريصا على تسجيلها كما سمعها.

ومن الأخبار التي حدثه بها صاحبها وقد نص أبو الفرج على اسم صاحب الخبر، ما ورد في الخبر الرابع عشر:[٣٦]"حدَّثني أبو محمد حمزة بن القاسم الشامي، قال: اجتزتُ بكنيسة الرَّها عند مسيري إلى العراق. فدخلتُها لأشاهدَ ما كنتُ أسمعه عنها. فبينا أنا في تطوافي، إذ رأيتُ على ركنٍ من أركانها مكتوباً بالحمرة: حضر فلان بن فلان وهو يقول: من إقبالِ ذي الفِطنة، إذا ركبَتْه المحنة انقطاعُ الحياة، وحضور الوفاة. وأشدُّ العذاب تطاوُلُ الأعمار في ظلّ الإدبار. وأنا القائل:

ولي همَّةٌ أدنى منازِلها السُّها ونَفْسٌ تَعَالى في المكارم والنُّهى
وقد كنتُ ذا حالٍ بمروٍ قريبة فبلّغتِ الأيّامُ بي بِيعةَ الرُّها
ولو كنتُ معروفاً بها لم أُقمْ بها ولكنَّني أصبحتُ ذا غُربةٍ بها
ومن عادةِ الأيّام إبعادُ مُصْطفى وتفريقُ مجموعٍ وتنغيصُ مشتهى

فاستحسنتُ النظم والنثر وحفظتُهما."[٣٧]

ويلاحظ أن أبا الفرج حريص في بعض الأخبار على ذكر كافة التفاصيل التي تعين على فهم أحوال الغرباء ودواخل نفوسهم، حتى وإن كان الخبر طويلا، كما في الخبر الخامس، يقول أبو الفرج: "وحدثني أبو عبد الله الواسطي الشاعر المعروف بابن الآجرّي قال: كنتُ أعاشرُ جماعةً من أهل الظرف وأولاد الرؤساء ونجتمعُ على الشراب دائماً. فدعانا فتًى منهم إلى العُمْر الذي في أسفلِ مدينة واسط، ويُعرف العُمْرُ بعُمْرِ سفر يشوع. فمضيْنا ومعنا من الغناء والآلة والشراب كلُّ شيءٍ ظريف، وأقمنا بالعُمْرِ ثلاثة أيام، ومضت لنا به أوقاتٌ طيّبة، وانصرفنا في اليوم الرابع وتفرّقنا بعد ذلك للمعايش والمتصرَّفات. فلما كان ذلك بشهور دُعينا إلى العُمْر، فلما حصلنا في القلاّية التي كنا شربْنا فيها في تلك الدُفْعة قال لنا

الفتى: ألا أُخبرُكم بحالي بعدكم؟ قلنا: بلى. قال: إنكم لما انصرفتُم من عندنا جاءني شابٌ له رواءٌ ومنظرٌ حسَن، ومعه غلامٌ نظيف الوجه في مثل زيّه، أحسبُه حبيباً له. فقال لي: أين الفتيان الذين كانوا عندك مجتمعين؟ فقلتُ: غَلَّسوا في الانصراف. فحزن وتبَيَّنْتُ الكآبة في وجهه. ثم سألني عن حالكم، وما صنعتم، وكم أقمتم. فحدّثتُه، فانبسط، واستدعى ما أكلَ هو وصاحبُه، وأخذا في الشرب، وطربا، وأقاما على حالهما ثلاثة أيام، ففعل مثل فعلكم. فلما كان في اليوم الرابع ودّعني وأخذ فحمة وكتب على حائط البيت شعراً، وقال: إن عادوا أوْقِفْهم عليه، وانصرف. فنهضْنا إلى البيت فإذا هو:

إخْوَتي إنّي سَمعتُ بكمْ ... فقصدْتُ العُمْرَ من طَرَبِ
فوجدتُ الدهرَ فرَّقكُم ... وكذاك الدهرُ ذو نُوَبِ
وسألتُ القَسَّ ما فَعلوا ... فأجاب القَسُّ بالعَجبِ
ففَعلنا مـــثلَ فِعْلِكُمُ ... وشرَبْنا من دمِ العِنبِ
بنتَ كرمٍ عُتّقتْ زَمَناً ... منذُ عهْدِ اللاّتِ والنُصُبِ
وجَنينا الحلوَّ من ثمرٍ ... وأكلنا يانعَ الرُّطَبِ
وتفرَّقنا على مَضَضٍ ... كُلّنا يدعو بواحرَبي

فلما عُدنا إلى واسط بحثنا عن الرجل فلم نعرف له خبراً، فعلمنا أنّه غريبٌ اجتاز بالبلد. (٣٨)

ومن الأخبار التي لم يذكر فيها اسم محدثه مع علمه به غالبا، ما ورد في الخبر الحادي عشر، فيقول:"وحدّثني شيخٌ لنا قال: قرأتُ على حائط مقبرة سيبويه مكتوباً:

رحل الأحبّةُ بعد طولِ توجُّعٍ ... ونأى المزارُ فأسلموكَ وأوجعوا
تركوكَ أوحشَ ما يكون بقَفْرةٍ ... لم يؤنسوكَ، وكربةً لم يدفعوا(٣٩)

ومن قبيل التعميم في مصدر الخبر قوله: "وقال لي شيخ من أهل الكوفة: قرأتُ على ركن قبَّةِ أبي موسى التي عندها هذين البيتين:

وليسَ الرزقُ عن طلب التمنّي ولكن إلْقِ دَلْوَكَ في الدِلاءِ

تجيءُ بملْئِها طوراً وطوراً تجيءُ بحمأةٍ وقليلِ ماءِ"[٤٠]

ومن الأخبار التي لم يحدد أبو الفرج مصدرها قوله: "ورُوي لنا عن إسحاق بن عبد الله قال: كنتُ في خدم أبي جعفر. فدخل قصر عبدَويْه وأنا معه. فقال: أعطني فَحمةً. فناولته، وكتب هذا الشعر على الحائط...."[٤١].

فعدم اكتراث أبي الفرج بتحديد مصدر الخبر مع علمه به يشير إلى أنه معنيٌّ في المقام الأول بالحالة الوجدانية للغرباء، خاصة وأن الغريب في الخبر السابق لم تكن غربته غربة مكان، لكنه اغتراب أملاه عليه شعور مسيطر بنهاية وشيكة، وما أراد أبو الفرج من كتابه إلا الغوص في أعماق وجدان الغرباء.

ومن الأخبار التي أوردها أبو الفرج على سبيل التواتر ولم يذكر لها قائلا لا بالإشارة ولا بالتسمية، قوله: "ويُقال إنه خرج يحيى بن خالد يوماً من داره راكباً يريدُ دار الرشيد، فمرّ ببعض أفنية قصره، وإذا على الحائط مكتوب:

انعموا آل بَرْمَكٍ وانظُروا منتهى هِيَهْ

وارقبوا الدهرَ أنْ يدور عليكم بداهيهْ

فوجم لذلك ورجع. فدخل عليه أبو نواس في ذلك اليوم فأنشده القصيدة التي مدحه بها وأوّلها:

أرَبْعَ البِلى إنّ الخشوعَ لبادي عليكَ وإنّي لم أخنك وِدادي

حتَّى انتهى إلى قوله فيها:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فُقِدْتُمُ، بني برمكٍ، من رائحينَ وغادي

فتطيَّر بذلك أيضاً. فلما كان في اليوم الثاني تحوَّل جعفر إلى الدار التي تخيّر له يحيى نزولَها، فإذا هو بهاتف يقول:

تُدَبّرُ بالنجوم ولستَ تدري وربُّ النجم يفعلُ ما يريدُ

فكان أمرهم قريباً".(٤٢)

ولعل سبب تواتر الرواية في الخبر السابق كونها تدور حول المشهورين والمتنفذين من البرامكة، ممن هم متن المجتمع وبؤرة اهتمامه في ذلك الوقت، وبالرغم من ذلك يسيطر حس الاغتراب على يحيى بن خالد البرمكي وهو في القصر المنيف، وتحيطه حاشيته، ويمجده الشعراء، إنها غربة النفس والشعور، وما الهاتف في الخبر السابق إلا حديث النفس، تلك هي اللحظات التي أراد أبو الفرج من كتابه أن يكون خازنا لها.

وتمثل الأخبار التي وردت عن طريق سند من الرواة الكثرة الكاسرة في كتاب أدب الغرباء، كأن يقول في الخبر الأول: "فمن ذلك ما حدّثني به أبو عبد الله أحمد بن جيش التمّار قال: حدثني أبي، عن بعض ولد أحمد بن هشام، عن أبيه قال...(٤٣)

وكان أبو الفرج إذا نسي أحدا من الرواة نص على ذلك كما في الخبر السادس والعشرين، فيقول: "وحدَّثني أبو عمر يحيى بن عمر قال: حدَّثني شيخ من الكتَّاب – أسماه ونسيت اسمه – قال: قرأتُ على حائط من أبنية المتوكل في سرّ من رأى...."(٤٤)

المبحث الثاني

ملامح نحيب الذات في أدب الغرباء

- الغربة، مفهومها وجذورها التاريخية.
- الشعر وطن الغرباء.
- فئات الغرباء.
- وجدانيات الغرباء.

الغربة، مفهومها وجذورها التاريخية

الغربة هي أولى عذابات آدم عليه السلام على ظهر البسيطة؛ إذ فارق موطنه الجنة وهبط غريبا إلى الأرض، ليقبع الإحساس بالتلازم بين الوطن والجنة في أعماق الشعور لدى بنيه، ولتكون الغربة قدرا محتوما عليهم إن بالهجر وإن بالهجرة، وقافلة الرسالات السماوية حافلة بالغرباء من أنبياء الله، حيث كان التغريب سلاحا مشرعا في وجوههم استخدمه أقوامهم بغية إثنائهم عن رسالاتهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[٤٥]

وربما كانت الغربة القرار الأخير من أنبياء الله بعد عناد أقوامهم، فقد قرر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الهجرة إلى الله، قال تعالى:﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤٦] وقال جل شأنه على لسان خليله: (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)[٤٧]. حتى إن الإمام القرطبي عد هذه الآية أصلا في الهجرة والعزلة . [٤٨] وتعد حالة الاغتراب الداخلي التي عاشها أنبياء الله ضرورة من ضروريات الرسالة؛ لما يلاقونه من سخرية أقوامهم وعنادهم، فشكا نوح إلى ربه اغترابه بين قومه الذين أصموا الآذان وأغمضوا الأعين عما يقول ويفعل، بل إنهم سخروا منه، وعاش يوسف غربة في السجن واغترابا خارج أسواره، وتغرب يونس في بطن الحوت.

وتمضي قافلة الغربة حتى تصل إلى الغريب الأكبر محمد صلى الله عليه وسلم، الذي صرح لأتباعه بأن الغربة قدر محتوم عليهم من بداية رسالة الإسلام وحتى منتهاها، وبشر الغرباء من أتباعه بالجنة، فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء)[٤٩] وزاد جماعة من أئمة الحديث في رواية أخرى: "قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، ولا يمارون في دين الله، ولا يكفرون أحدًا من أهل التوحيد بذنب".[٥٠]

ويظل هاجس الغربة يراود رسولنا الكريم من بداية بعثته، وهو المحب لوطنه، ويظهر ذلك في حواره مع ورقة بن نوفل الذي أخبره بأنه مفارق لوطنه "فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ".(٥١)

ومع جلل الموقف لم يستوقف الرسول صلوات الله عليه ورقة في حوارهما، إلا عندما أخبره بإخراجه من وطنه، فقال مستنكرا متعجبا: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟!"

ويعرب صلوات الله وسلامه عليه عن ألمه في موقف رحيله عن موطنه مكة، حينما وقف على الحَزْوَرَة، متوجها صوب مكة: "والله إنك لخيرُ أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرِجت منكِ ما خرجت ".(٥٢)

ويرق الرسول صلى الله عليه وسلم لحنين بلال بن رباح، إلى موطنه مكة، وقد أصيب مع نفر من الصحابة بحمى المدينة، "وكان بلال إذا أقلعت عنه يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل تبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة".(٥٣)

حديث الغربة ذو شجون، وحتى لا نقع في شرك الاجترار فلن نذهب بعيدا في مجال استقصاء مفهوم الغربة والاغتراب في معاجم اللغة

ومصنفات الأدب، فنخوض عباب لجة لا نعرف مداها، وتخرج بنا عن سير الدراسة، بيد أنه يجدر بنا أن نشير إلى ان الحقول الدلالية لكلمتي الغربة والاغتراب تجتمع حول معاني البعد عن الوطن ومفارقة الأهل والأحباب بالجسد أو بالروح، فإن كانت المفارقة بالجسد فهي الغربة، وإن كانت بالروح فهو الاغتراب.

ومن أكثر أحاديث الغربة تمثيلا لحال أبي الفرج الأصفهاني، حالة تأليفه لهذا الكتاب، حديث أبي حيان التوحيدي في إشاراته عن الغريب، فحديثه يغنينا عن كثير من الإحالات في هذا الشأن؛ حيث رسم صورة لغربة الإنسان عن الوطن وفي الوطن، وأسهب أبو حيان في وصف الأخيرة، بنبض مفكر عانى من ويلات تهميش الحكام له وعدم تقديرهم لفكره، بل ربما مطاردته؛ إذ لم يرقهم اعتزازه بذاته وثباته في سجالاته الفكرية، مما اضطره إلى التخفي والعيش طريدا لعقود، فاجتمعت عليه غربة الوطن وغربة الذات، تلك الغربة التي لا تتطلب سفرا ماديا، ولا تدخل في حيز الغربة المكانية، إنها غربة الذات في حيز الزمان وأهله، هي ذات الغربة التي سيطرت على أبي الفرج، مع اختلاف الأسباب، ودفعته دفعا إلى التأمل في حس المغتربين وتصوير معاناتهم، خاصة أولئك الذين أطلقوا العنان لأحاسيسهم، ولم يجعلوها حبيسة القراطيس، بل أطلقوها في الفضاء، وأشركوا فيها العامة قبل الخاصة.

فقد كان موضوع الغربة محور إحدى رسائل أبي حيان في إشاراته الإلهية، كتبها في مدينة "شيراز" يصف حاله، حال الغريب الذي فارق وطنه واعتزل مجتمعه لإعراض الكل عنه بقوله:(٥٤)

"يا هذا ! الغريبُ من غربت شمسُ جماله، واغترب عن حبيبة وعذّاله، وأَغْرَبَ في أقواله وأفعاله، وغَرَّب في إدباره وإقباله، واستغرب في طِمِرِه وسربالِه. يا هذا! الغريب من نطق وصفُه بالمحنة بعد المحنة، ودل عنوانه على الفتنة عقب الفتنة، وبانت حقيقته فيه في الفينة حَدّ الفينة.

الغريب من إن حضر كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً. الغريب من إن رايته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه، أما سمعت القائل :

بَمَ التعلُّل ؟!لا أهلٌ ولا زمن ولا نديمٌ ، ولا كأسٌ ، ولا سكَنٌ

هذا وصفُ رجل لحقته الغربة، فتمنى أهلاً يأنس بهم، ووطناً يأوى إليه، ونديماً يَحلُّ عُقَد سرَّه معه، وسكناً ينتشى منها، وسكناً يتوادع عنده ".

ثم يتدرج أبو حيان في مراقي الغربة والاغتراب ليصل إلى أعلى درجات الغربة تعقيدا والتي أطلق على من ابتلي بها صفة " أغرب الغرباء"، فيقول: "وأغرب الغُرَباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البُعداء من كان بعيداً في محل قربه، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود، ويغمض عن المشهود، ويقصى عن المعهود، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود، ورِفْدٍ مرفود، وركن موطود، وحد غير محدود. ياهذا! الغريب من إذا ذكر الحقَّ هُجِر، وإذا دعا إلى الحق زُجِر. الغريب من إذا أَسْنَدَ كُذّب، وإذا تطاهر عُذّب. الغريب من إذا امتار لِمِ يمر، وإذا قَعَد لم يُزرْ. يا رحمتنا للغريب! طال سفره من غير قدوم، وطال بلاؤه من غير ذنب، وأشتد ضَرَرُه من غير تقصير، وعظم عناؤه من غير جدوى! الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله. الغريب إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف، وإن كتم أكمده الحزن واللّهَف. الغريب من إذا أقبل لم يُسَّمع له، وإذا أعرض لم يسئل عنه. الغريب من إذا سأل لم يعط، وإن سكت لم يُبْدَأ. الغريب إذا عطس لم يُشَمَّت، وإن مرض لم يُفتقّد. الغريب من إذ زار أغْلق دونه الباب، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب." إنه ذلك الغريب الذي يعاني غربة مركبة اجتمعت عليها غربتا الزمان والمكان، والتي وصفها التوحيدي بقوله: " بل الغريب من هو في غربته غريب."

وما أقرب تلك الأوصاف التي خلعها أبو حيان على الغريب بما قاله من قبله كل من زهير والأعشى، قال زهير:

ومن يغترب يحسب عدوَّاً صديقه ومن لا يكرِّم نفسه لا يكرَّم

وقال الأعشى:

ومن يغترب عن قومه لا يزل يرى مصارع مظلومٍ مجرّاً ومسحبا

وتدفن منه الصَّالحات وإن يسيء يكن ما أساء النَّار في رأس كبكبا[٥٥]

ورسالة أبي حيان عن الغريب أرحب من أن تشملها الدراسة، إلا أنها تعبر في مجملها عن حالة يعيشها الكثيرون من أصحاب الفكر والرأي، وأرباب الإبداع والفن في عصور التحول السياسي الذي ينعكس بدوره على تحولات شتى في بنيان المجتمع، "فالغربة التي اعترته، هي ليست من فعل صيرورة وإمساء كما أنها ليست جزئية أو فرعية، بل جامعة وكلية، أي في الحال واللفظ والنحلة والخلق، حتى إنه عاشها كحالة انهيار وجودي، لا نجد أبلغ من كلماته لوصف أعراضها الجسمية والنفسية "من انكسار النشاط، وانطواء الانبساط، لتعاود العلل عليّ، وتخاذل الأعضاء فيَّ، فقد كَلَّ البصر، وانعقد اللسان، وخمد الخاطر، وذهب البيان، وملك الوسواس، وغلب اليأس من جميع الناس"[٥٦]

ولعله لم يكن من قبيل المصادفة أن نرى غير واحد من المبدعين المغتربين الرافضين لأحوال مجتمعاتهم يتسمون بإهمال هيأتهم ومظهرهم مما ينفر منهم المحيطين بهم، ويحول دون مخالطتهم الحكام والقادة وحضور مجالسهم، "فقد كان التوحيدي – فيما وصف به – صوفي السمت والهيئة رث اللباس، نابي المظهر لا هيئة له عند ملاقاة الكبراء ومقابلة الوزراء، وقد أكسبه المظهر الصوفي غرارة ربما كانت سبب حرمانه من بلوغ حقه، وزهد الأعاظم فيه، وإيثار سواه، وقبله حُرم الجاحظ – وعلى رفيع مقامه – من منادمة الخليفة لقبح منظره، ودمامة شكله، وفي أيامه اعتزل أستاذه أبو سليمان المنطقي مجالس عضد الدولة لأنه كان أعور وبه وضح"[٥٧]

وهكذا كان أبو الفرج رث الثياب، لا يعنى بمظهره، وأراها ترجمة ظاهرية لحالة الاغتراب، وردة فعل تصعيدية تجاه المجتمع تصور حالة من حالات الرفض للمجتمع، وعدم الاكتراث بالأسس والأعراف التي تواضع عليها أهله.

الشعر وطن الغرباء

في ظل حالة الاغتراب يجد مرهفو الحس ضالتهم في الشعر كمعادل موضوعي لحالة فقدان الوطن، فالشعر وطن الروح الهائمة وقرار النفس الحائرة، والعلاقة بين المكان والشعر علاقة تلازمية بدت في مكونات القصيدة، وقد انتبه ابن رشيق إلى تلك العلاقة الخاصة في مقولته: "والبيت من الشِعر كالبيت من الأبنية، قراره الطبع وسمكه الرواية، ودعائمه العلم وبابه الدُربة ،وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون. وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخي والأوتاد للأخبية"(٥٨)

وتلك العلاقة التلازمية بين البيت المعهود كفضاء مكاني يحتوي جسد الإنسان، وبيت الشعر كفضاء روحي يحتوي وجدانه نتج عنها علاقة تبادلية بين الشعر والوطن؛ فالشاعر يحتوي الموطن إذا عجز الموطن عن احتوائه، يقول المتنبي مستشعرا تلك الحالة:

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

وقد وجد الشاعر الجاهلي في الشعر وطنا بديلا يحتويه، ويبثه شجوه وألمه وتباريح اغترابه إثر فقد الديار والأحبة من قاطنيها، إما بسبب الحروب أو بسبب الجفاف والقحط، ما يفسر الحضور الطاغي للمكان في معلقة امرئ القيس، ذلك النموذج الأقدم لموروثنا الشعري، حتى إن الحنين للوطن ممثلا في الطلل والبكاء عليه تصدر المشهد في المعلقة، وأضحت تلك الصدارة عادة فنية لعصور متلاحقة، فيما اصطلح عليه في العرف النقدي "بالمقدمة الطللية" التي يبثها الشاعر مشاعر

الشّوق والحنين للديار القديمة التي احتضنته مدة من الزمن، ثم أرغمته الظروف على الابتعاد عنها وعن أحبته من أهلها، ومما يلهب جذوة الحنين ويعلي من نبرة الحسرة و الألم بسبب ألا يجد من تلك الديار سوى الرسوم.

وظل رجع صدى الوطن على مر العصور يقرع آذان المغتربين، سواء فارقوه مختارين للعلم أو تحقيق الثراء أو صحبة السلطان أو الجهاد، أو فارقوه كارهين بسبب النفي أو السجن أو الفقر الشديد، خاصة مع ازدهار الحضارة العربية التي بلغت أوجها في العصر العباسي، فللحضارة الجديدة أثرها على تحولات المشهدين السياسي والاجتماعي، من قيام الثورات واستبدال الخلفاء وتغيير الحواضر، وما يتبع ذلك من انعكاسات على الشعراء لارتباطهم بالسلطان، وتزايد الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين أبناء المجتمع. "وثمة اختلاف بين معاشر الشعوب في مدى حنينها لأوطانها... فمنها المهاجر بالفطرة أو (السليقة التاريخية) ومنها الثابث المتشبث. وعلى العموم ودون تعميم، فإن جل الشعوب الطينية راسخة والرملية مهاجرة، والعراقيون طينيون، لايبرحون وطنهم إلا مكرهين. وقد حدث الأمر عند الانعطافات الكبرى في التاريخ، ومنها سقوط نامات سومر على يد البداة المهاجمين من الشرق، وسقوط آشور عام ٦٠٥ ق.م ، وبابل عام ٥٣٩ق.م، والدولة الأموية ٧٤٥م، حيث رحل العراقيون بعيدها زرافات من الموالين للأمويين إلى المغرب والأندلس... وحين سقطت بغداد العباسية عام ١٢٥٨م حيث رحل الكثيرون لمصر والمغرب وفارس، حتى (الخلفاء) العباسيين وجدوا لهم موقع قدم في القاهرة".[٥٩]

وبغض النظر عن سبب الاغتراب، وموقع المغتربين من وطنهم، يظل الوطن ملء السمع والبصر والفؤاد، حتى لو استبدل بالوطن أرضًا رغيدة وعيشًا مترفًا، فلا يهنأ إلا بوطنه؛ فحب الوطن لايعلل ولا يقاس

بمقاييس الحسن والسوء، ولا يوضع في مفاضلة مع أرض أخرى، فكونه وطنا يجعل كفته ترجح أي شيء يقابله، وقديما قال الشاعر:

بلادٌ ألِفناها على كلِّ حالةٍ

وقد يؤْلَفُ الشيءُ الّذي ليسَ بالحَسَنْ

وتُستعذَبُ الأرضُ التي لا هَوَاْ بها

ولا ماؤُهَا عَذْبٌ ولكنّها وطَنْ(٦٠)

فئات الغرباء

ولكي تتضح لنا ملامح نحيب الذات في أدب الغرباء علينا أن نتعرف على شخصيات الغرباء وتصنيفاتهم التي تتبدى من خلال ملامح ذواتهم المنتحبة. ولم يقتصر أبو الفرج في رصده لوجد الغرباء على فئة بعينها، بل تتبع مختلف فئات المجتمع المكونة للنسيج الاجتماعي في عصره، فأرانا حس الغربة يتسرب إلى نفوس جميع الطوائف حتى الملك في حاشيته، فهناك غرباء الملوك، وغرباء الشعراء، وغرباء المتصوفة، وغرباء النساء، فضلا عن مجهولي الغرباء، وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتي أبو الفرج نفسه، الذي أملى عليه حس الاغتراب تصنيف هذا الكتاب. وفيما يلي عرض لنماذج من فئات الغرباء.

أبو الفرج الأصفهاني

إن الغريب الأول في "أدب الغرباء" هو أبو الفرج الأصفهاني، وقد أشرنا سابقا إلى أن سيطرة حس الاغتراب النفسي والمكاني هو ما دفعه إلى تصنيف الكتاب، إذ صرح في مقدمته بأنه ممزق القلب حرج الصدر،

متلمسا في كتابه السلوى بحال أقرانه من منغصي العيش، وكأنه في حالة تناص وجداني مع الخنساء في قولها:

ولَوْلا *كَثْرَةِ الباكينَ حَوْلي* على إخوانهمْ لقتلتُ نفسي

يقول أبو الفرج: " وربما قاد الفراغ إلى التشاغل بغير مهم، ودعا التفرد إلى مقاربة النغص، وحملت الحاجة إلى تورط الحتوف، وسهلت المحن ركوب كل مخوف. والذي بي من تقسم القلب وحرج الصدر، يسومانني إلى ما ذكرته، ويبعثانني إلى مثل ما قدمته. فأشغل نفسي في بعض الأوقات بالنظر في أخبار الماضين وأحاديث السالفين، فربما أسلتْ ذا شجن، وتأسَّى بمتَضَمنها ممتحن، فأنا في ذلك كغريق اللجة بما يجد يتعلق، ويتشبث طلبا للحياة بما لحق).

وتشير نصوص الكتاب إلى كثرة أسفار أبي الفرج، باحثا عن ذاته محاولا أن يلملم أوصالها الممزقة، يهفو إلى تحقيق كينونته هفو الظمآن إلى برد الماء أو الولهان إلى ملاقاة الحبيب، متلمسا السلوى في نصوص الغرباء وأخبار السالفين، ولكن على ما يبدو أن ما به من شجى عصيّ على التأسي، وكأن السلوى سراب يغريه بكثرة الترحال؛ عله يجد ضالته لاهثا خلف بصيص الأمل، ولكن سرعان ما ينسرب هذا الأمل انسراب الماء في رمال الصحاري، ولذا استشعر حاله كغريق اللجة الذي يعلق بما يجد متشبثا بالحياة.

يقول ابو الفرج: "وكنتُ انحدرتُ إلى البصرة منذ سُنَيَّات. فلما وردتُها صعدتُ في الفيضِ إلى سكَّة قريش أطلبُ منزلاً أسكنه، لأنَّني كنتُ غريباً لا أعرف أحداً من أهلها، إلاّ مَنْ كنتُ أسمع بذكره، ولا آنسُ به. فدلَّني رجلٌ على خانٍ، فصِرتُ إليه، واكتريتُ منه بيتاً، وأقمتُ بالبصرةِ أيَّاماً. ثم خرجتُ عنها طالباً حِصْنَ مَهْدي، وكتبتُ هذه الأبيات على حائط البيت الذي كنتُ أسكنه:

الحمدُ لله على ما أرى من ضَيْعتي ما بَيْن هذا الورى

أصارني الدهرُ إلى حالةٍ يعدَمُ فيها الضّيْفُ عندي القِرَى
بُدّلتُ من بعد الغنى حاجةً إلى كلابٍ يَلْبَسون الفِرا
أصبح أُدْمُ السوقِ لي مأكلاً وصار خُبْزَ البيت خبزُ الشِرا
من بعدِ مِلكي منزلاً مُبْهجاً سكنتُ بيتاً من بيوتِ الكِرا
فكيف أُلْفى ضاحكاً لاهياً وكيف أَحْظى بلذيذِ الكَرى
سبحان من يَعْلَم ما خلْفنا وتحتَ أيْدينا وتَحتَ الثرى
والحمدُ لله على ما أرى وانقطع الخطْبُ وزالَ المِرا

فما أدري أهو باقٍ إلى اليوم أم درس". [٦١]

والأبيات السابقة تعبر تعبيرا دقيقا عن تبدل الحال بأبي الفرج؛ حيث تحول من الغنى إلى الفقر، وألجأته الحاجة إلى اللئام، فأنى له السعادة والسكينة وهو في غمرة تلك المفارقات التي تدع الحليم حيرانا، فليس بوسعه إلا أن يتعجب مسبحا الخالق المدبر الذي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وما تحت الثرى!

وفي إحدى أسفاره نزل أبو الفرج قرية باجسرا، وهي قرية كبيرة بنواحي بغداد، وحوصرت القرية وهو بداخلها، فكتب شعرا على حائط مسجدها الجامع يعبر فيه عن ضيقه وتأزمه، ويناجي ربه لانفراج تلك الأزمة، يقول أبو الفرج: " قال صاحب هذا الكتاب: وشخصتُ إلى باجِسْرا في بعض المتصرّفات فأقمتُ بها مدَّةً طالت في غير فائدة. ثم أردت الانحدار عنها. فأعوزني ذلك لمحاصرة بني شيبان إيَّاها. كنتُ ألازم المسجد الجامع لأنَّه كان مطلا على سامرَّا، وله فسحة. فحضرتْني هذه الأبيات فكتبتها على حائط المسجد، وهي:

أقولُ والنفسُ ألوفٌ حَسْرى والعينُ منْ طولِ البكاءِ عَبْرى
وقد أنارتْ في الظلامِ الشِّعْرى وانْحدرتْ بناتُ نعشِ الكُبْرى
يا ربّ خلِّصْني من باجِسْرى وابدِلْ بها يا ربِّ داراً أخرى"[٦٢]

ثم فرَّج الله تعالى، وانصرفتُ منها سليماً.

غرباء الخلفاء والأمراء

مما يسترعي الانتباه أن أبا الفرج بدأ كتابه بغرباء الأمراء، ليبعث برسالة تسرية لكل غريب، حتى لا تنال الغربة من همته، ولا تثبط عزيمته، فالغربة تطال الأمير في حاشيته، كما تتملك الفقير في عزلته، فيصور الخبر الأول لقطة من لقطات الغربة في حياة الخليفة المأمون، في إحدى غزواته للروم، إذ يسير الخليفة على درب الغرباء، ويأبى أن يغادر المكان قبل أن يسجل مشاعره على جدرانه، يقول أبو الفرج: "فمن ذلك ما حدّثني به أبو عبد الله أحمد بن جيش التمّار قال: حدثني أبي، عن بعض ولد أحمد بن هشام، عن أبيه قال: كنتُ في جملة عسكر المأمون حين خرج إلى بلد الروم، فدخل وأنا معه إلى كنيسةٍ قديمة البناء بالشام، عجيبةِ الصُّور. فلم يزل يطوف بها، فلمّا أراد الخروجَ قال لي: مِنْ شأن الغرباء في الأسفار ومنْ نزحت به الدار عن إخوانه وأترابه، إذا دخل موضعاً مذكوراً، ومشهداً مشهوراً، أن يجعل لنفسه فيه أثراً، تبرُّكاً بدُعاء ذوي الغُربة، وأهل التقطُّع والسياحة. وقد أحببْتُ أن أدخل في الجملة، فابْغ لي دواةً. فكتب على ما بين باب المذبح هذه الأبيات:

يا معشرَ الغُرباءِ رَدّكُمُ	ولقيتُمُ الأخبارَ عن قُرْبِ
قلبي عليكم مُشْفِقٌ وَجِلٌ	فشفا الإلهُ بحِفْظِكم قلبي
إنّي كتبتُ لكيْ أساعدكمْ	فإذا قرأتم فاعرفوا كتبي"[٦٣]

لقد أشار المأمون إلى عادة من عادات الغرباء، وهي الكتابة على الجدران، وانتبه إلى البعد النفسي لتلك العادة وهو تأكيد الذات، فالغريب يرفض أن يكون في طي النسيان، فيحفر خطرات نفسه في ذاكرة الوجود المطلق، ليجعل من شعوره الخاص حالة عامة، ويخرج بأحاسيسه من شرنقة الذات إلى فضاء المجموع، وهو ما أشرنا إليه سابقا بتحويل الهامش متنا. ومن المفارقات أن تخرج الغربة بالمأمون من مركز المتن

إلى حافة الهامش، وشأن أي غريب يحاول المأمون أن يعيد نفسه إلى المركز بصنيع الغرباء حيث الكتابة على الجدران.

ويأتي الخبر الثاني في الكتاب ليجعل في صدارة الغرباء غريبا في عقر داره، وهو أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الذي بنى مدينة السلام بغداد، وزينها بالقصور الشامخة ومنها قصر عبدويه المنسوب إلى رجل من الأزد يقال له عبدويه، وكان من وجوه رجال الدولة، ونسب إليه لأن الخليفة صيّر إليه النفقة على القصر والإشراف على بنائه.(٦٤)

فدخل أبو جعفر القصر، وكأنه استشعر غربته في الدنيا، وتذكر أنه عابر سبيل، ففعل فعل الغرباء في كتابة خواطرهم على الجدران، وكتب أبياتا للبيد تعبر عن مكنون ذاته، يقول أبو الفرج: "ورُوي لنا عن إسحاق بن عبد الله قال: كنتُ في خدم أبي جعفر. فدخل قصر عبدَويْه وأنا معه. فقال: أعطني فَحمةً. فناولته، وكتب هذا الشعر على الحائط:

المرءُ يأملُ أن يعيشَ وطولُ عيشٍ قد يَضُرُّهْ
تُودي بشاشتُه ويعقبُ بعْدَ حُلوِ العيشِ مُرُّهْ
وتَسوؤه الأيامُ حتَّى لا يرى شيئاً يسُرُّهْ
كمْ شامتٍ بي إن هَلكتُ وقائلِ لله دَرُّهْ

قال: فما لبث إلا قليلاً. والشعر للبيد.(٦٥)

ويأتي الخبر الثالث بغريب آخر من الخلفاء، وهو الخليفة الواثق الذي تملكه حس الاغتراب في غمرة مجلس السمر والشراب، فآثر أن يسجل حالة من حالات القلق الوجودي الذي ينتاب الإنسان خشية سلب النعمة وتبدل الحال، فحفر مشاعره على جدار القصر، يقول أبو الفرج: "وحدثني أحمد بن زياد الكاتب، شيخ لقيتُه ببغداد، من أهل همذان قال: حدثني أبو الحسن علي بن يحيى المنجّم، عن أبيه قال: أخذ الواثقُ يوماً بيدي يتكئ عليها، ويطوفُ على الأبنية بسرّ من رأى ليختار منها بيتاً

يشربُ فيه في ذلك اليوم. فلما انتهى إلى البيت المعروف بالمختار استحسنه، وجعل يتأمله وقال لي: هل رأيت أحسن من هذا البيت؟ قلت: يُمتِّعُ الله أمير المؤمنين به، وتكلَّمتُ بما حضَرني. وكانت فيه صورٌ عجيبة، من جملتها صورةُ بَيْعةٍ فيها الرهبان، وأحسنها صورة شهّار البيعة، ثم أمر بفرش الموضع وإصلاح المجلس، وحضر الندماءُ والمغنون، وأخذنا في الشُّرْب، فلما انتشى أخذ سكّيناً لطيفاً كانت بين يديه، وكتب على الحائط كأنّي أراه:

ما رأينا كَبَهْجَةِ المختارِ ... لا ولا مثلَ صورة الشَهّارِ
مجلسٌ حُفَّ بالسرورِ ... والنَرْجسِ والآسِ والغِنا والبَهارِ
ليس فيه عيْبٌ سوى أنّ ... ما فيه سيُفنيه نازلُ المقدارِ

فقلنا: يُعيذُ الله أمير المؤمنين ودولته من هذا. ووَجَمْنا. فقال: شأنكم وما واتاكم، فما يقدّمُ قولي خيراً ولا يؤخر شرًا. قال: واجتزتُ منذ سُنيّاتٍ بسرّ من رأى، فرأيتُ بقايا هذا البيت وعلى حائطٍ من حيطانه مكتوب:

هذي ديارُ ملوكٍ دَبَّروا زمناً ... أمْرَ البلادِ وكانوا سادةَ العَرَبِ
عصى الزمانُ لهمْ من بعد طاعته ... فانظر إلى فِعْلِهِ بالجوْسَقِ الخربِ
وبَرْكَوَارَا و بالمختار قد خَلَيا ... من ذلك العِزِّ والسلطانِ والرُّتَبِ"(٦٦)

وأثناء تطواف الخليفة المتوكل بكنائس بلاد الشام، إذ يطرب لشجو غريب مجهول، سجل أناته على جدار إحدى الكنائس، يقول أبو الفرج: "وحدَّثني أبو بكر محمد بن عمر قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن الفضل النحوي، قال: حدَّثني بعض بني حمدون عن شيوخه قال: كنتُ مع المتوكل لمَّا شخص إلى الشام، فلما صرنا بحمص قال أريدُ أن أطوف كنائسَ الرهبان كُلَّها، والموضع المعروف بالفراديس إذا وصلنا إليها فإني كنتُ أسمعُ بطيب هذا الموضع. فقلتُ: الرأيُ ما رآه أمير المؤمنين. ثم إنَّا أُنزلنا منزلاً بين كنائس عظيمة وآثار قديمة، ترتاح النفوسُ إليها، ويشتهي

من ينزلُها ألاّ يرتحل عنها. فلما استراح من نصبِ الركوبِ استدعاني وقال: هل لك في التطواف؟ قلت: كما أمرَ أمير المؤمنين. فأخذ بيدي، ولم يزل يستقري تلك الكنائس والديارات، ويُشاهدُ فيها من عجائب الصور وفاخرِ الآلة، ... وهو يمشي، إذ لمح كتابةً على حائط الكنيسة، فقربنا من ذلك فإذا هو: حضرَ الغريبُ المشرَّدُ الحريب وهو يقول: شُتِّتَ شملي بعد الأُلفة، وشقيَ جسمي بعد الكلفة، ومشيتُ من العراق إلى هذا الرواق، وارتحلتُ عنه في ذي الحجّة من سنة إحدى ومائتين، وأنا أقول:

آل أمري إلى أخسِّ الأمور وتبدلت كربةً بسرور

واعترتْني من الزمان خُطوبٌ تتبارى في هتكة المستور

نفسُ صبراً لحادثات الليالي كلُّ شيءٍ يذلُّ للمقدور"(٦٧)

فقال: ويحك! ما أطرف هذا المسكين، وما أحرقَ هذا الأنين".

غرباء الشعراء

ومن غرباء الخلفاء إلى غرباء الشعراء، وفي طليعتهم شاعر من سلالة الخلفاء، بل تقلد الخلافة بالفعل لكنه خليفة اليوم والليلة كما يلقبونه، وهو عبد الله بن المعتز؛ حيث تقلد الخلافة يوما واحدا وقتله غلمان المقتدر بالله الذي اعتلى عرش الخلافة من بعده، والغربة ديدن الشعراء فهم غرباء الدنيا بما وهبوا من حس مرهف يندر مجاراته عند غيرهم، فقد جبلوا على غربة الروح التي رافقتهم من دفء الرحم إلى جوف الثرى، فنرى ابن المعتز يشدو شدو الغرباء.

يقول أبو الفرج: "وحدَّثني شيخ رأيتُه في مجلس أبي الطيِّب أحمد ابن الحسين المتنبِّي، قال: حدَّثني أبي قال: كنتُ أخدم عبد الله بن المعتزّ، فخرج يوماً يتنزَّه ومعه ندماؤه. وقصد باب الحديد وبستان

الناعورة، وكان ذلك في آخر أيامه، فرأيته وقد أخذ خرقةً وكتب على الجصّ:

سقياً لظلّ زماني وعيشيَ المحمود

ولا كليلة وصلٍ مرَّت برغم الحسود

فحفظتُ البيتين وانصرفنا. وضربَ الدهرُ ضَرَباته، وقُتل أبو العباس. وعدتُ بعد سنين إلى بغداد، فقُضي لي دخول البستان، وإذا البيتان بخط أبي العباس قد خفيا، وبقي أثرٌ منهما، وإذا تحته مكتوب:

أفٍّ لظلٍّ زماني وعيشيَ المنكودِ

فارقتُ أهلي وداري وصاحبي ووَديدي

ومَنْ هويتُ جفاني مُطاوعاً للحسودِ

يا ربّ موتاً وإلاّ فراحةً من حَسودِ"(٦٨)

وهذا علي بن الجهم يئن بأبيات من الشجن المصفى، فيترحم لكل غريب قادته خطاه إلى متاهة الغربة، يقول أبو الفرج: "وذكر إبراهيم بن حميد العطَّار قال: لما أصابت علي بن الجهم الجراحات في طريق الشام كان فيما يهذي به الليلَ:

ذكرتُ أهل دُجيْلٍ وأين منِّي دُجَيْلُ

هل زاد في الليل ليلٌ أم سال بالصبحِ سَيْلُ

ولما مات وُجد هذا الشعر قد كتبه على الحائط:

يا رحمتا للغريب في البلد النَّا زِحِ ماذا بنفسه صَنَعا

فارقَ أحبابَهُ فما انتفعوا بالعيشِ من بعدِهِ وما انتفعا"(٦٩)

غرباء المتصوفة

يعد التصوف موئلا للمغتربين، وأرضا خصبة نبتت فيها جذور الاغتراب، فاستخدمه الصوفية بمعانيه المختلفة، وعايشوه تجربة وجدانية ووجودية، ذات أبعاد دينية تبدأ بخروج الإنسان من الجنة، وهبوطه إلى الأرض، *فالمتصوف السائح في الأرض بحثا عن المعرفة* "غريب الدنيا والآخرة"؛ إذ يرى أنه اغترب عن ربه ويحاول جاهدا اجتياز المسافات الحائلة بينهما، فاستهجنه الناس، وثار على حاله ومقاله الفقهاء ورجال الدين المسيطرون على فكر السلطة الحاكمة.(٧٠)

ومما ذكره أبو الفرج لغرباء المتصوفة ما أورده في الخبر السبعين، في سياق محاورة بين صوفيين، حيث يقول: "حدَّثني أبو الحسن علي الواسطي الصوفي قال: لقيتُ في طريقي وأنا متوجّهٌ إلى أذربيجان فتى عليه زيّ الصوفية في قاع، لم يكن لنا ثالث إلاّ الله تعالى. فأنستُ به وقلت: سلامٌ عليكم. فقال: وعليكم سلامُ الله ورضوانه. قلتُ: فمن أنت أيُّها الرجل، فإنِّي أرى سيماء الخير بيِّناً على وجهك؟ فقال: عبد الله السائح في بلاد الله. قلتُ: زدني معرفة. قال: يكفيك ما سمعت. قلتُ: فمن أين أقبلتَ؟ قال: من حيثُ لا أدري. قلتُ: فما سبب ضجرِك وانقباضِك مني وسترِك حديثك عني؟ قال: فديتُك! أنا لو كان لي فرج في الخروج إليك بقصَّتي، أو علمتُ أنك تملك معونتي أو تقدر على إعانتي للخّصتُ لك الأمر، ولأقمتُ لك على ما تشاهده من صورتي العذر. وتركني ومشى. وهو يشهق ويبكي ويقول:

هل إليكم بعد الفراق مَعادي ... ولديكم لدى التفرّق زادي

إنْ تكونوا رَقَدْتُمُ الليلَ إنِّي ... مُذْ نأيتُمْ عنِّي قليلُ الرقادِ"(٧١)

ولعل الحس الصوفي لأبي الحسن الواسطي راق لأبي الفرج بتميزه بين أقرانه من المتصوفة، حتى إنه وصفه بالحلاوة في خبر آخر يصور اغتراب المتصوفة، يقول أبو الفرج: "حدَّثنا أبو الحسن علي بن عبد الله

الواسطي الصوفي – وكان حلواً من بين الصوفية– قال: اجتزتُ بسرّ من رأى يوماً. فقصدت المسجد الجامع، فإنِّي لعلى نحو من ثُلث المنارة أقرأ خطوط الناس بحضورهم فأعجب من كثرتها إذ قرأت بين الخطوط: حضر الهاربُ من الله إليه، والمتوكِّلُ في كلِّ خطبٍ عليه، وهو يقول: يا كاشفَ الكرْبَة عن أيوب، ومُرسل العير إلى يعقوب، فرِّج هموم الكَمِدِ المكروب، وارزُقْه من فضلك يا وَهوب. وفي موضع آخر مكتوب على الجص: حضر عليّ بن جابر الرازي وهو يقول: معاشر الغرباء والمجتازين! لمَ اللجاجةُ عادةُ المحبوبين، والخلافُ خلق المعشوقين؟

خبِّرونا هداكمُ الله هذا قد سألنا عن ذاك أهلَ العلومِ
فأجابوا بغير شيء عرفنا هـ، ولم يشف ما بنا من كُلومِ
عجّلوا بالجواب حيَّاكم الله ومنُّوا به على المهمومِ

فلم أدرِ ما أكتبُ به، وتقاصرت نفسي إلى أن يكون رجل من أهل الريّ يسأل أهل العراق عن شيء، فلا يسرعون إلى الجواب عنه. فانصرفتُ مغتاظاً".[٧٢]

غرباء مجهولون

كان لمجهولي الغرباء حظ وافر من الأخبار التي أوردها أبو الفرج في كتابه؛ فالغريب محاط بمجاهل عدة، تبدأ من داخله وتنتهي بمحيطه الخارجي بكل أشكاله. ما يفسر اهتمام أبي الفرج بأخبار مجهولة المصدر؛ إذ لم يكن الهدف من الكتاب تسليط الضوء على الأعلام المبرزين بقدر ما كان يهدف إلى إعادة تنسيق صورة المشهد الاجتماعي ليخرج بهؤلاء المجهولين من هامش المشهد إلى متنه، مستحضرا حالة وجدانية يستوي فيها بني البشر بغض النظر عن موقعهم أو مكانتهم، وقد رأيناه بدأ بالأمراء والخلفاء ليؤكد هذا المفهوم.

ومن أخبار الغرباء المجهولين قول أبي الفرج: "وحدَّثني رجلٌ من بني نمير يُعرفُ بالأخيْطل، شاعر لقيته بنواحي كوثى بمشهد إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، قصدها ليمتدح أبا الحسن علي بن مزيد الأسدي، وأنشدني شيئاً من شعره وقال: قرأتُ على صخرة بجزيرة قبرس مكتوباً: يقول فلان بن فلان البغدادي: قذف بي الزمانُ إلى هذا المكان.

فهل نحو بغدادٍ مَعادٌ فيشتفي مَشوقٌ ويحظى بالزيارة زائرُ

إلى الله أشكو لا إلى الناس، إنَّه على كَشْفِ ما ألقى من الهمِّ قادرُ"(٧٣)

ولعل الحنين إلى الوطن سيطر على قائل الأبيات لأن غربته مضاعفه؛ فهو عربي في بلاد العجم، فاحتلت بغداد صدارة المشهد.

وفي الخبر الحادي والعشرين تنزف جراحات الغربة الغائرة بآلام دفينة باحت بها نفس غريب محتضر، يقول أبو الفرج: "وأخبرنا أبو القاسم علي بن محمد بن أبي هذا الكتاب* قال حدَّثني أخي قال: اجتزتُ بنواحي بلد الروم مما يلي خَرْشَنة، فاجتزتُ بمدينة حسنةِ البناءِ يُحيطُ بها سورٌ من حجر أبيض تُخالِطُهُ حُمرة، ومياه تجري من عيونٍ في داخل الحصن، وأشجار كثيرة الثمر، وظل ثخين تحت شجرة جوز. فأعجبني الموضع، وجلستُ أحادثُ رجلاً من أهل المدينة، يحسن العربية فقال: كان طرأ إلينا شابٌّ ذكر أنَّه من أهل العراق، حسن الوجه، نظيف الجملة، غزير الأدب. وكان لا يفارقني. فأقام في بلدنا سنين، ثم مرض فعَلَّلْتُهُ، وقمت بأمره، فلم يلبث أن مات. فحزنني ودفنته في تلك القبَّة – وأومى بيده إليها – على قبلة الإسلام. وكان في مرضه كتب على الحائط من البيت الذي كان فيه، ووصَّى أن يُكتب على قبره، فقم لتقرأه. فإذا قد كتِبَ على الحائط:

تعسَّفتُ طولَ السَّيْرِ في طلبِ الغنى فأدركني رَيْبُ الزمان كما ترى

فيا ليت شعري عن أخلاّيَ هل بكوا لفقديَ أم ما منهمُ من به

درَى

قال: فكتبتُ الأبيات وانصرفتُ من الموضع حزيناً"[٧٤].

غرباء النساء

ولم يفت أبو الفرج أن يكشف عن أثر الغربة في النساء، خاصة عند امرأة مشهورة بالشعر والظرف وضرب العود مثل عُليَّة بنت المهدي أخت هارون الرشيد، إذ اصطحبها هارون الرشيد في إحدى رحلاته ببلاد فارس، فغلبها الشوق والحنين إلى بغداد وأهلها، فباحت بما يبوح به المغترب، وكتبت أنات شوقها على بيوت الشَّعر أو الفساطيط، كما ذكرها أبو الفرج، فلما قرأها الرشيد رق لحالها وأعادها إلى العراق، يقول أبو الفرج: "ولمَّا خرج الرشيدُ إلى الريّ أخذَ أخته عُلَيّةَ. فلمَّا صار بالمرجِ عملتْ شعراً وصاغتْ فيه لحناً من الرَّملِ. وكتبتْ الأبيات ليلاً على بعض الفساطيط في طريق الرشيد. فلما دخل إلى مضرب الحرم بَصُرَ به، فقرأه، وإذا هو:

ومُغْتَرِبٍ بالمرج يبكي لِشَجْوه وقد غابَ عنه المُسعِدون على الحبِّ

إذا ما أتاهُ الرَّكبُ من نحو أرضِهِ تنشَّقَ يستشفي برائحـــــــــــةِ الركبِ

فلمَّا قرأه علم أنَّه من فِعل عُلَيَّة، وأنَّها قد اشتاقتْ إلى العراق، وإلى أهلها. فأمرَ بردِّها". [٧٥]

وجدانيات الغرباء

ومع تفاوت فئات الغرباء فإنهم متقاربون، إن لم يكونوا متحدين، في مشاعرهم ووجداناتهم، ونبرات نحيبهم، على اختلاف طوائفهم وأسباب اغترابهم، فمهما تجلدت نفوسهم إلا أن قلوبهم تقتات الشوق وتتدثر بالوجد، فللغربة أثرها في إحداث رؤية واعية لعذابات الروح ومعاناتها، لتتجاوز بها غربة رحلة محدودة المكان والزمان، منطلقة إلى آفاق اغترابها عبر رحلتها في الكون، ومن ثم نطقت آثار الغرباء بأنات قلوبهم عبر مجموعة من خطرات الوجدان يمكن أن نتلمسها فيما يلي:

الحنين إلى الوطن

الحنين إلى الوطن من أكثر المشاعر غلبة على الغرباء، وتصور الكثير من أخبار الغرباء توقهم إلى وطنهم، ومن ذلك ما قرأه أبو الفرج على حائط المسجد الجامع بإحدى قرى خراسان:

"سقى الله أيّامَ التواصلِ غَيْثَهُ ورَدَّ إلى الأوطان كُلَّ غريبِ

فلا خيرَ في دُنيا بغيرِ تواصلٍ ولا خيرَ في عَيْشٍ بغيرِ حبيبِ"(٧٦)

ولعل مشهد الطلل يطل برأسه على الصورة السابقة، حيث الدعاء بالسقيا لأيام الوصال، جريا على عادة الشعراء في الدعاء بالسقيا للطلل، وكأن الغريب يقف على طلل روحه، مستحضرا ذكرياته.

ومن الحنين إلى بغداد ـ ولها من السحر في نفس أهلها ما لها ـ ما قرأه بعضهم على صخرة بجزيرة قبرص: "يقول فلان بن فلان البغدادي: قذف بي الزمانُ إلى هذا المكان.

فهل نحو بغدادٍ مَعادٌ فيشتفي مَشوقٌ ويحظى بالزيارة زائرُ

إلى الله أشكو لا إلى الناس، إنَّه على كَشْفِ ما ألقى من الهمِّ قادرُ"[٧٧]

الشكوى والأسى

تعد الغربة رافدا رئيسا من روافد شعر الشكوى؛ حيث يختلي الغريب مثقلا بهمومه وآلامه، فيبث شعره ما يجد من تباريح النوى ، وتبوح نفسه بما يلاقي من آلام الفراق، ويعتصر قلبه ألما من تبدل حاله من الغنى إلى الفقر، ومن ذلك ما كتبه أبو الفرج على حائط منزل سكنه بمدينة البصرة:

"الحمدُ لله على ما أرى من ضَيْعتي ما بَيْن هذا الورى
أصارني الدهرُ إلى حالة يعدَمُ فيها الضّيْفُ عندي القِرَى
بُدّلتُ من بعد الغنى حاجةً إلى كلابٍ يَلْبَسون الفِرا
أصبح أُدْمُ السوقِ لي مأكلاً وصار خُبْزَ البيت خبزُ الشِرا
من بعدِ مِلكي منزلاً مُبْهجاً سكنتُ بيتاً من بيوتِ الكِرا
فكيف أُلْفى ضاحكاً لاهياً وكيف أَحْظى بلذيذِ الكَرى
والحمدُ لله على ما أرى وانقطع الخطْبُ وزالَ المِرا"[٧٨]

وقد تأتي الشكوى في سياق ساخر يثير في النفس حالة من الأسى لما آل إليه حال الغريب، وذلك كما ورد في القصة التالية: " وحدَّثني أحمد بن عبد الله بن علي قال: ذكروا أنَّ أبا فلان المدني كان مُبَخَّلاً، وكان يقرأ على مخلاة حماره وقت القضيم سبع مرات "قل هو الله أحد" ويعلقها على الحمار. فلم يلبث أن نَفَقَ الحمار. فدفنه وبنى عليه قبَّة كتب على حائطها:

ألا يا حماراً كان للحُمْر سابقاً فأصبح مصروماً على السيب في قبر
جُزيتَ مع القتِّ الشعيرَ مُغَرْبلاً وأسكنك الرحمـــــن في جنَّة الحُمْرِ

فقيل له: وأين جنَّة الحُمْرِ؟ قال: قَراحُ الرَطْبة. قال: ثم وُجد بعد ذلك على حائط القبَّة مكتوباً هذين البيتين:

الحمدُ لله لا شريكَ لـــــــه ماذا أرى من عجائب الزمنِ
إنْ كان هذا الحمار في كفنٍ وقبَّةٍ، إنَّني بلا كَفَنِ
فعُلم أن بعض الغرباء المنقطع به، كتبها".(٧٩)

وقد تمثل الشكوى حالة من حالات مراجعة الذات، فيقف المغترب مع نفسه يواجهها بما تثقله طموحاتها من وطأة الغربة وانقضاء العمر بعيدا عن أحبابه، ومن ذلك ما رواه أبو الفرج: "لما اجتاز الرشيدُ في طريقه إلى خراسان أقام بحلوان أياماً، ثم رحل فوجد بخط على حجر كان بالقُرب منه:

حتَّى متى أنا في حِلٍّ وترْحالِ وطولِ سَعْيٍ وإدبارٍ وإقبـــــــــــــالِ
ونازح الدارِ لا أنفكُّ مُغْتَرباً عن الأحبّةِ لا يدرونَ ما حالـــــــــــي
بمَغرِب الأرضِ طَوْراً ثم مَشْرقِها لا يخطرُ الموتُ من حِرْصي على بالي
ولو قنِعْتُ أتاني الرزقُ في دَعَةٍ إنّ القُنوعَ الغنى ، لا كثرة المالِ"(٨٠)

الاسترحام

قد يصل الغريب إلى حالة من اليأس تشعره بدنو الأجل وفقدان الأمل، فيلوذ إلى الاسترحام وطلب الدعاء لحاله، ومن ذلك ما وجده أبو الفرج مكتوبا بجامع الرصافة في مدينة السلام:

"رحم الله من دعا لغريبٍ مُدْنَفٍ قد جفاه كلُّ حبيب
ورماه الزمانُ من كلّ قطرٍ فهو لا شكّ ميتٌ عن قريب"(٨١)

الاستعلاء

ونجد حس الاستعلاء في طائفة من آثار الغرباء، ولعلهم بذللك الاستعلاء يشيعون في أنفسهم جوا من الدفء ليذيب صقيع الغربة، أو يغرسون في نبتة مخضرة في صحراء حياتهم، ومن ذلك ما كان مكتوبا على أحد حوائط كنيسة الرها: " حضر فلان بن فلان وهو يقول: من إقبال ذي الفِطنة، إذا ركبَتْه المحنة انقطاعُ الحياة، وحضور الوفاة. وأشدُّالعذاب تطاوُلُ الأعمار في ظلّ الإدبار. وأنا القائل :

ولي همَّةٌ أدنى منازِلها السُّها ونَفْسٌ تَعَالى فـي المكـارم و النُّهى
وقد كنتُ ذا حالٍ بمروٍ قريب فبلّغـتِ الأيّـامُ بـي بِيعـةَ الرُّها
ولو كنتُ معروفاً بها لم أُقمْ بها ولكنَّني أصبحتُ ذا غُربةٍ بها
ومن عادةِ الأيّام إبعادُ مُصْطفى وتفريقُ مجموعٍ وتنغيصُ مشتهى"(٨٢)

ومن الاستعلاء المشوب بالأسى ما كتبه شاب عراقي مغترب على حائط المسجد الجامع بنيسابور، بعد أن عرض عليه أحدهم أن يقدم له المعونة، فشكره الشاب، ووجد مكتوبا مكانه:

" لو ماتتِ النفسُ من جوعٍ ومن كمدٍ لما شكوتُ الذي ألقى إلى أحدِ
يا ليتني كنتُ أدري ما الذي صَنَعَت بعدي الحوادثُ بالأهْلين والولدِ
وبالحبيبِ الذي ودَّعتُه فبكى وقال: ما دار هذا منك في خَلَدي
لو كنتُ أعلمُ أنَّ البَيْنَ مقتربٌ ما كنتُ أصغي إلى عُذْرٍ ولا فَنَدِ"
ولم يُر له أثر بعدها".(٨٣)

الحكمة

رغم قسوة الغربة ووقعها المؤرق على النفس إلا أنها تصقل الغريب بخبرات جمة، فتكسب الشباب خبرة الشيب، فبقدر ما تكون الغربة أحد أوجاع الحياة، إلا أنها تثري خيال المغترب بما يحتشد في عقله من مفارقات عجيبة، وما يتجدد في نفسه من ذكريات سعيدة تداعب واقعيا أليما، فتعمق بداخله حس المفارقة، وتكسبه القدرة على تعقل الأمور واستبطان الحكمة من المواقف والأحداث، ولعل هذا يفسر دوران الحكمة في شعر الغرباء، ومن ذلك قول أحدهم:

"وليسَ الرزقُ عن طلب التمنّي ولكن إلْقِ دَلْوَكَ في الدِلاءِ
تجيءُ بملْئِها طوراً وطوراً تجيءُ بحمأةٍ وقليلِ ماءِ"(٨٤)

لقد تعلم الغرباء طبائع الدنيا المتقلبة، وخبروا حقيقتها المتغيرة، فلم يركنوا إليها، ولم يأنسوا بها، وفي هذا السياق يقول أبو الفرج: "وذكر سهل بن عليّ قال: حدّثني داود بن رشيد قال: أخبرني الهيثم بن عديّ قال: أصبتُ على صخرةٍ ملساء بأرض العرب مكتوباً :

فمن حمدَ الدنيا لعيشٍ يسُرُّهُ فسوف لعمري عن قليل يلومُها

إذا أدبرتْ كانت على المرءِ حَسْرَةً وإن أقبلتْ كانت قليلاً نعيمُها"(٨٥)

ومن الحث على الزهد في الدنيا وعدم الإقبال عليها: "ويقال إنَّه قُرئ على ميلٍ بطريق.... حرسها الله تعالى:

ألا يا طالبَ الدنيا دعِ الدنيا لشانيكا

فما تَصْنَعُ بالدنيا وظِلُّ الميل يكفيكا" (٨٦)

ويرى المحقق أن المحذوف مكان النقاط قد تكون مكة المكرمة لدعائه لها.

التصبر

ويحاول الغرباء الترويح عن أنفسهم من وطأة الاغتراب، والتخلي عن الشكوى والألم وجلد الذات واستبدال التجلد بالعويل، فقد روى أحدهم لأبي الفرج ما رآه مكتوبا على صخرة:

"وكُلُّ البلادِ بلادُ الفتى وليس لأرضٍ إليه نَسَبْ

قال: فقلتُ : لا يموتُ صاحب هذا البيت إلاّ غريباً."(٨٧)

ومن ذلك أيضا ما نقشه أحد الغرباء على صخرة: "حضر المُمْتَحَنُ بدهره، المتحيِّر في أمرِهِ، وهو يقول :

صبرتُ عن اللذات لما تولَّت وألزمتُ نفسي صبرها فاستمرَّتِ

وما المرءُ إلاّ حيثُ يجعل نفسَه فإن أُطعِمتْ تاقتْ وإلاّ تَسَلَّتِ"(٨٨)

ويتأسى بعضهم بمن دالت دولتهم وهجرت قصورهم وضاعت هيبتهم، ليروح عن نفسه ما يجده من ذل الاغتراب وشجى الفراق، فيقول: "حضر عبد الله بن عبد الله، ولخطبٍ ما كتمتُ نفسي وعمَّيتُ بين الأسماء اسمي، في سنة خمس وثلاث مائةٌ وهو يقول: سبحان من ألهم الصبر في البليّة، وحلم عن عقوبة أهل الظلم والجبريّة. إخوتي، ما أذلَّ الغريب وإن كان في صيانة، وأشجى قلبَ المُفارق وإن أَمِن الخيانة، وأمور الدنيا عجيبة، والأعمار فيها قريبة :

وذو اللبّ لا يلوي عليها بطَرْفة ولا يقتنيها دار مُكثٍ ولا بقا

تأمَّلْ ترى بالقصر خلقاً تحسّه خلا بعد عزٍّ كان، في الجوِّ قد رقا

وأمرٌ ونهيٌ في البلاد ودولةٌ كأنْ لم يكن فيه، وكان به الشقا"(٨٩)

ومنهم من يذكِّر نفسه بقضاء الله النافذ، ليبث في نفسه السكينة بالرضا بالقدر المحتوم الذي ألقى به على أرض جزيرة غريبة لايتكلم أهلها العربية، فلا يأنس بلسان، ولا يفصح عن بيان، ومن ذلك ما قرأه شيخ كثير الأسفار على أرض مدينة بجزيرة غريبة: "فبينا أنا أطوف في تلك المدينة إذ بصرتُ بكتابة عربيَّة على بابها، فتأمَّلتُها، فإذا هي: بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله خالقِ الخَلْق، وصاحبُ الرِزْق. ما أعجبَ قصَّتي وأعظم محنتي، أفضتني الخطوب وقصدتني النكوب حتَّى بلغتُ هذا الموضع المهيب، ولو كان للبُعْد غاية هي أسحقُ من هذا المحل لبلّغني إليها ولم يقنع إلاّ بها. وتحت ذلك مكتوب:

مِنْ شدَّةٍ لا يموتُ الفتى ولكنْ لميقاته يهلكُ

فسبحانَ مالكَ مَنْ في السما والأرضِ حقًّا ولا يُمْلَكُ"(٩٠)

رثاء الذات

حينما يسيطر شعور اللاجدوى وتخيم النوائب على الغريب ويشعر بدنو أجله، فيبادر برثاء ذاته، لأنه لن يجد من يرثيه، فقد اغترب أحد شباب العراق ببلاد الروم فكتب في مرض موته بيتين على حائط البيت الذي يسكنه وأوصى بكتابتهما على قبره، وهما:

تعسَّفتُ طولَ السَّيْرِ في طلبِ الغنى فأدركني رَيْبُ الزمان كما ترى

فيا ليت شعري عن أخلاّيَ هل بكوا لفقديَ أم ما منهمُ من به درَى"[٩١]

ومن ذلك ما رثى به نفسه علي بن الجهم لما أصابته الجراحات في طريق الشام، إذا وجدوا مكتوبا على حائط البيت الذي مات به:

"يا رحمتا للغريب في البلد النَّا زِحِ ماذا بنفسه صَنَعا

فارقَ أحبابَهُ فما انتفعوا بالعيشِ من بعدِهِ وما انتفعا"[٩٢]

التشبيب

وحينما يفقد الغريب شبابه وتنسرب منه أيامه، يأسى لفراق أحبابه الذين وهبوه الحياة من قبل، فتثور بداخله مشاعر الصبابة والجوى، ومن ذلك قول أبي الفرج: "وقرأت أنا أيضاً على حائط بُستان على نهر الأُبّلة هاذين البيتين:

وما زاد قربُ الدار إلاّ صبابةً إليكِ، ولكنَّ المزارَ بعيدُ

فلا يُبْعدنكِ الله يا فَوْزُ إنَّني أبيتُ وقلبي باللقاءِ عميدُ

وتحته مكتوب: إن كان لك بختٌ ستَفْطن، وإن فطنتْ وتغافلتْ فما

حيلتي؟"[٩٣]

الامتنان

ومن المشاعر النادرة للغرباء أن نجد أحدهم ممتنا لأرض الغربة، ومن ذلك ما وجد مكتوبا على حائط أحد قصور بني المهلب:

"نزلتُ على آل المهلّب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن المحلِ

فما زال بي إكرامهم وافتقارُهم وبرُّهُمُ حتَّى حسبتمُ أهلي"[٩٤]

ومن الأكثر ندرة أن نجد أحدهم يأسى على فراق وطن الغربة ويأسف لعودته إلى وطنه، يقول أبو الفرج: "حدَّثني شيخ من أهلنا قال: قرأتُ على حائط خضراء رَوْح بالبصرة مكتوباً بسواد: بسم الله الرحمن الرحيم. حضر فلان بن فلان السَّاوي، وهو يقولُ: هربتُ من الإملاق والحسرة، فقذف بي الزمانُ إلى البصرة، فكانت أعظم البلدان بركةً عليّ، كسبتُ بها مالاً، وعقدتُ بها حالاً، وآخيْتُ فيها فتياناً، وحصلت من أهلها إخواناً، وقضى الله لغلبة نحسي عوْدي ورجوعي إلى ساوة، فرحلتُ وأنا أقول :

أعززْ عليَّ بفرقةٍ ورحيلِ عن قُرب محبوبٍ ودارِ خليلِ

والله يعلمُ أنَّني مُتَحرِّقٌ لفراقكم ذو صَبوةٍ وغليلِ

أترى الزمان يسرُّني بلقائكم بعد التفرُّق والنوى بقليلِ

وإذا تحته مكتوب: بغير ذلك الخطّ: نعم، إن شاء الله."[٩٥]

المبحث الثالث

الظواهر الفنية في أدب الغرباء

ـ السمات الأسلوبية لنثر الغرباء.

ـ السمات الفنية لشعر الغرباء.

ـ حواريات الغرباء.

ـ النزعة القصصية.

تعددت الظواهر الفنية في أدب الغرباء من خلال الأخبار المروية عن نقوشهم وكتاباتهم، شعرا كانت أو نثرا، وإن كان النثر يمثل قدرا يسيرا بالقياس إلى الشعر، ولنحاول فيما يلي تدبر آثار الغرباء، بغية استجلاء بعض ظواهرها الفنية.

السمات الأسلوبية لنثر الغرباء

مع غلبة القالب الشعري على أدب الغرباء إلا أنه يمكننا استخلاص بعض السمات الأسلوبية لما وقع بين أيدينا من آثارهم النثرية، فالغالبية العظمى من أخبارهم يأتي شعرا، فضلا عن السياق السردي للخبر، وبعض أخبارهم يأتي مزيجا من الشعر والنثر، والقليل منها يأتي نثرا خالصا. والنوعان الأخيران من الأخبار هما محل الدراسة فيما يخص الآثار النثرية.

فمن الأخبار التي مزج فيها الغرباء بين الشعر والنثر قول أبي الفرج: "وحدَّثني أبو القاسم عيسى بن أحمد المنجّم قال: دخلتُ في طريقي إلى سيف الدولة الرقَّة، فنزلت بالقصر الأبيض، وآثار الرشيد به باقية. فخرجتُ أطوف ببساتينها وأبنيتها. فلما حصلتُ بالقصر الأبيض رأيتُ على بقيَّة جدار منه مكتوباً: حضر عبد الله بن عبد الله، ولخطبٍ ما كتمتُ نفسي وعمَّيتُ بين الأسماء اسمي، في سنة خمس وثلاث مائة وهو يقول: سبحان من ألهم الصبر في البليّة، وحلم عن عقوبة أهل الظلم والجبريّة. إخوتي، ما أذلَّ الغريب وإن كان في صيانة، وأشجى قلبَ المُفارق وإن أَمِن الخيانة، وأمور الدنيا عجيبة، والأعمار فيها قريبة:

وذو اللبّ لا يلوي عليها بطَرْفة ... ولا يقتنيها دار مُكثٍ ولا بقا
تأمَّلْ ترى بالقصر خلقاً تحسّه ... خلا بعد عزٍّ كان، في الجوِّ قد رقا
وأمرٌ ونهيٌ في البلاد ودولةٌ ... كأنْ لم يكن فيه ، وكان به الشقا"(٩٦)

ومنها كذلك ما قرأه المتوكل في الكنيسة: "إذ لمح كتابةً على حائط الكنيسة، فقربنا من ذلك فإذا هو: حضرَ الغريبُ المشرَّدُ الحريب وهو

يقول: شُتِّتَ شملي بعد الأُلفة، وشقيَ جسمي بعد الكلفة، ومشيتُ من العراق إلى هذا الرواق، وارتحلتُ عنه في ذي الحجّة من سنة إحدى ومائتين، وأنا أقول:

آل أمري إلى أخسِّ الأمور وتبدلت كربةً بسرور
واعترتْني من الزمان خُطوبٌ تتبارى في هتكة المستور
نفسُ صبراً لحادثات الليالي كلُّ شيءٍ يذلُّ للمقدور"[٩٧]

ومن الأخبار النثرية الخالصة، قول أبي الفرج: "ويقال إنَّه وُجد كتابة منقورة في جبل بناحية اصطخر هذه الكلمات: ربّ مَغْبوطٍ بنعمةٍ وهي داؤه، ومرحومٍ من سَقَمٍ هو شفاؤه، ومحمود علي رخاءٍ هو بلاؤه."[٩٨]

وما أقرب تلك المفارقة التي عبر عنها الغريب بقول المتنبي:

ماذا لَقيتُ مِنَ الدُنيا وَأَعجَبُهُ أَنّي بِما أَنا باكٍ مِنهُ مَحسودُ[٩٩]

ومن الأخبار النثرية الموجزة قول أبي الفرج : "وحُكي عن سويد بن جعفر الكوفيّ قال: قرأتُ على حجر منقور على باب الحيرة : مَنْ يعمل اليوم لدار البقاء يجزيه مولاه غداة اللقاء. فاجتهِدِ الـــيوم بحسن التُقى تَنْجُ به من شرِّ دار الشقا"[١٠٠].

ويلاحظ أن كتابات الغرباء النثرية تكاد تتفق في أسلوبها مع طريقة عبد الحميد بن يحيى الكاتب رائد مدرسة الترسل الصناعي؛ حيث إيثار الجمل القصيرة، واستخدام الصنعة اللفظية في غير تكلف يذهب برواء المعنى، ففيها االسجع والازدواج والتوازن القائم على تعادل الفقرات. وتختلف كتابات الغرباء عن أسلوب عبد الحميد الكاتب في كون الأخير يميل إلى الإطناب بينما تتسم كتاباتهم بالإيجاز؛ لضيق المساحة المتاحة لهم، ولاقتراب عباراتهم من سياق الحكمة أحيانا، مما يحتم عليهم الإيجاز.

بل إن بعض كتاباتهم بدت فيها ملامح القريحة الأدبية المقتدرة في الصنعة، من حيث تتبع أدق أنواع السجع، إذ لا يعنى فقط بفواصل الجمل، بل يتعداها إلى بقية مفردات الجملة؛ ليحدث التوازن بين غالبية مفردات الجمل وزنا ورويا، وذلك كما في المثال المذكور سابقا: "ربّ مَغْبوطٍ بنعمةٍ وهي داؤه، ومرحومٍ من سَقَمٍ هو شفاؤه، ومحمود علي رخاءٍ هو بلاؤه"، فالكلمات المتقابلة في بدايات الجمل الثلاث: "مغبوط، ومرحوم، ومحمود" اتفقت وزنا، وكذلك الكلمات: "هي، وهو، وهو" اتفقت وزنا، بينما اتفقت الفاصلتان: "شفاؤه، وبلاؤه" وزنا ورويا، واتفقت معهما الفاصلة الثالثة "داؤه" رويا دون الوزن.

السمات الفنية لشعر الغرباء

إن طبيعة التجربة الشعورية لغرباء الشعراء تفرض على الشاعر تكثيف شعوره في كلمات موجزة أكثر ما تكون وضوحًا، وأشد ما تكون صدقًا، وأعمق ما تكون عاطفة وانفعالًا، وهذا مجال المقطوعة الشعرية المحدودة الأبيات، والتي تعين الشاعر على استقصاء لحظة الشعور، لكونها تعبر عن خاطرة واجدة تلح على كاتبها فيرسلها في شكل دفقة شعورية موجزة لا مجال فيها للاحتشاد في ضروب الوصف، والاحتفال بفنون البديع، إلا ما جاء عفو الخاطر واقتضاه المعنى.

والمقطوعة الشعرية ظاهرة شائعة في الشعر العباسي بمختلف أغراضه، "وأنت إذا تصفحت دواوين الشعراء العباسيين أو طالعت أخبارهم أدركت أن ما قالوه من مقطعات يشغل حيزا كبيرا مما خلفوه من أشعار. فإذا تأملت هذه المقطعات أدركت أنهم تناولوا فيها كل آفاق التجربة الشعرية التي حلقوا فيها، من الدعابة الهازلة والتحامق والمجون إلى النسيب والغزل، إلى الخمريات والزهريات، إلى العتاب والهجاء والرثاء، إلى الرسائل الإخوانية. ومعنى هذا أن شكل المقطوعة الشعرية القصيرة قد صار في العصر العباسي إطارا فنيا له وزنه وله خطره في شعر ذلك

العصر، لأنه كان استجابة لذوق العصر من جهة، وتحقيقا لشعبية الشعر وسرعة تناقله ودورانه على ألسن الناس من جهة أخرى".[١٠١]

وقد استوقفتنا في أدب الغرباء ظاهرتان فنيتان، إحداهما ظاهرة فنية نثرية بالأساس، إلا أن سمة الإيجاز الغالبة على شعر الغرباء نقلتها من حيز النثر إلى الفضاء الشعري مع مزجها بنتف من الكلمات المنثورة، وهي "التوقيعات الشعرية" أو ما أسميناه "حواريات الغرباء". والأخرى ممثلة في النزعة القصصية في بعض أخبار الغرباء مع تنوع مشارب تلك النزعة واختلاف مراميها. وفيما يلي عرض لكلتا الظاهرتين.

حواريات الغرباء

ومن الظواهر الفنية اللافتة للانتباه في أدب الغرباء تلك الحواريات التي يسجلها الغرباء على الحوائط أو الأحجار أو الأشجار أو غيرها، لكنها حواريات مختلفة في طابعها عن مغزى الحوار المعتاد، الذي يقع عادة بين طرفين يتجاذبان الأفكار ويرد كل منهما على الآخر، بينما حواريات الغرباء أشبه ماتكون بفن التوقيعات المعروف في الأدب العربي، ذلك الكلام البليغ الموجز الذي يكتبه الخليفة أو ولي الأمر أسفل المكاتبات الواردة إليه، والمتضمنة لشكوى أو رجاء أو طلب إبداء الرأي في أمر من الأمور، وقد يأتي في صورة آية قرآنية أو بيت من الشعر أو مثل ثائر أو غير ذلك. فكثيرا ما نرى غريبا يكتب أثرا ويمضي، ويأتي غريب آخر ليكتب تعليقا على ذلك الأثر شعرا أو نثرا، في المكان نفسه، ليكون الفضاء الخارجي هو حلقة الوصل بين الغرباء بعضهم البعض، وبينهم وبين طوائف المجتمع الأخرى.

وتعد منارة الإسكندرية مقصدا للغرباء، حيث يحرص كل غريب على ألا يغادر المكان دون أن يحفر اسمه في ذاكرة التاريخ عبر ذلك الأثر

الذي يتركه على المنارة، وذلك فيما رواه أبو الفرج عن رجل من أهل الشام قال: "اجتزتُ بمنارة الإسكندرية فدخلتُها لأرى عجيبَ بنائها وما أسمعُ من صِفتها، فإني لأطوفُ فيها فمررت بموضعٍ في أعلاها فيه خطوطُ الغرباء والمجتازين قديمةٌ وحديثة. وإذا في جملةِ ذلك موضعٌ مكتوب بحبر بيِّنٍ: يقولُ محمد بن عبد الصمد: وصلتُ إلى هذا الموضع في سنة سبعين ومائتين. وصلتُ إليه بعد نصَبٍ وشقاءٍ، ومُلاقاةِ ما لم أحسبْ أنّي ألقى. ولم أحبّ الانصراف عنه إلا بعد أن يكون لي به أثرٌ، فقلتُ هذه الأبيات و كتبتُها فيه:

شَرّدَتْني نوائبُ الأيّامِ ورمتني بصائباتِ السهامِ
فَرّقَتْ بين من أحبُّ وبيني وَيْح قلبي المتيّمِ المستهامِ
لَهْفَ نفسي على زمانٍ تَقَضّى فكأنّي رأيتُه في المنامِ

وتحته مكتوبٌ: يقول فلان بن فلان – وقد محا الاسمين طولُ العهد – وصلتُ إلى هذا الموضع في رجب سنة ثلاث وثلاث وثلاث مئة، على مثل حال المشرَّد عن إخوانه، المطرود عن أوطانه، وقرأتُ الأبيات، وما أعرَفني بالغرض فيها وأوقعني بمعانيها إلا أنّني جرّبتُ الدنيا فوجدتُها غروراً، والأحباب زوراً، والرجوع إلى الله تعالى في النائبات أولى بذوي العقول من ارتكاب التهْلُكات. ولم أحبّ الانصراف عن هذا المكان إلا بعد أن يكون لي به أثر. فقلتُ هذه الأبيات مجيباً لهذا الأخ رعاه الله حيًّا وميتاً. وإذا الأبيات:

أيّها المدّعي على الأيّامِ أنْ رَمَتْهُ بصائباتِ السهامِ
خَفْ من الله واعتزلْ كلَّ زورٍ وتجنّب مواقفَ الآثامِ
تَجِدِ اللهَ عندَ كُلِّ مخوفٍ كاشفاً للهمومِ والآلامِ
فلهُ الحمدُ والخلائقُ طُرًّا وهو ربُّ الدهورِ والأعوام[١٠٢]

ففي الرواية السابقة حوار بين ثلاثة أطراف من الغرباء، لا يعرف أحدهم الآخر لكنهم يتناصحون ويتبادلون الخبرات غيبا، من قبيل التصبر والتسلي وتلاقح المشاعر والتجارب وتبادل الخبرات.

وفي حوارية أخرى نجد أحد الغرباء يشد على يد كل غريب، ويعظه بالتسلح بالصبر حتى يحين الظفر، فيرد عليه أحد الغرباء بما يشي عن حالة من اليأس وانقطاع الرجاء في كشف البلاء، لتكشف لنا الحوارية عن أحوال الغرباء المتفاوتة، ما بين اليأس والرجا، وهي مشاعر تنتاب كل غريب، يقول أبو الفرج: "وحدَّثني أبو الحسن بن مروان الأندلسي، شيخ لقيتُه في مجلس أبي بكر محمد بن الحسن بن مقسم قال: اجتزتُ في طريقي إلى العراق بمدينةٍ يقال لها ظفار. ودَعَتْني الضرورة إلى المقام بها أسبوعاً. فكنتُ في كلِّ يوم أطوف أقطارها وأقصد مَنْ كان بها على مذهب الشافعي. فاجتزتُ يوماً في قصر منها خراب، قديم البناء، فإذ على بابه مكتوب بحبر: حضر محمد بن محمد بن عبد الله بن داود الطبرسي هذا الموضع في سنة أربع وثلاثمائة وهو يقول :

يا مَنْ ألحَّ عليه الهمُّ والفِكْرُ وغيَّرتْ حالَه الأيامُ والغِيَرُ

أمَا سمعتَ بما قد قيل في مَثَلٍ عند الإياس فأينَ الله والقدَرُ

نم للخطوب إذا أحداثُها طَرَقَتْ واصبرْ فقد فاز أقوامٌ لها صبروا

وكلُّ ضيقٍ سيأتي بعده سَعَةٌ وكلُّ فَوْتٍ وشيكٌ بعده الظَّفَرُ

وتحته مكتوب بغير ذلك الحبر والخطّ: حضر القاسم بن زرعة الكَرَجي في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وقرأ الأبيات وهو يقول: لو كلّ من صبر أُعقبَ الظفر، صبرتُ، ولكن نجد الصَّبر في العاجل يُفني العمر. وما كان أولى لذي العقل موته وهو طفل، والسلام."(١٠٣)

وفي حالة من أحوال التناغم الوجداني بين الغرباء، يرسم لنا أحد الأخبار صورة تغلب عليها الغرائبية في تشكيل حالة من حالات التواصل الروحي بين الغرباء، يقول أبو الفرج: "حدَّثني فتًى من أهل الموصل قال: كنتُ سائراً بالساحل في طريق مكة، وإنِّي لفي بعض الطريق إذ سمعتُ صوتاً – ولا أرى أحداً – وهو يقول:

نفسي الفداءُ لنفْس كلِّ غريبِ وفداءُ كلِّ مُفارقٍ لحبيبِ
لعبتْ به الأيَّامُ في تصريفها ونأت به عن صاحبٍ وقريبِ

فحفظت البيتين، ولما وصلتُ إلى جبلٍ بالقرب من الموضع كتبتهما على جانبه. ومضيت فأقمتُ بالرملة شهوراً، وعدتُ فاجتزتُ بالموضع الذي كنتُ كتبتُهما فيه، فإذا تحته مكتوب:

نحنُ نفديكَ يا ظريفَ الفعالِ أبداً بالنفوسِ و الأموالِ
أثقلتْنا الأبياتُ بالشكر حتى قدْ ضعفنا عن نيلهِ بمقال
أنا ممن نأى وفارَقَه الإلْ فُ فأمسى مُغَيَّرَ الأحوالِ
ولعلَّ الزمان يرحمُ ضَعفي فتعودُ الأيَّامُ لي بالوصالِ
ولا أدري لمن الشعر الأول والثاني.[١٠٤]

ولا تقتصر حواريات الغرباء على العربية وحدها، فهناك نقوش صخرية بلغة غير العربية ، لكن أبا الفرج أثبت ترجمتها دون أن يحدد اللغة التي كتبت بها، إلا أن الرد كان عربيا، يقول أبو الفرج: "ووُجد على جبلٍ بنواحي ديار ثمود كتابة منقورة في الصخرة تفسيرها: يا ابن آدم ما أظْلَمك لنفسَك! ألا ترى إلى آثار الأوَّلين، فتعتبر، وإلى عاقبة المُنْذَرين فتزدجر. وتحته مكتوب بخط عربي: بلى، كذا ينبغي. فعُلم أنَّ بعض السيَّاح وذوي الغربة والأسفار قد بلغ به الدهر إلى ذلك الموضع فأجاب بما وجد."[١٠٥]

النزعة القصصية

من الظواهر الفنية التي أثْرت كتاب أدب الغرباء تلك النزعة القصصية المتكررة في كثير من أخبار الكتاب، ما يعد تمهيدا لفن القصة القصيرة في الأدب العربي إن لم يكن تأسيسا له. ولعل توجه أبي الفرج لهذا اللون من ألوان النثر يعد استجابة طبيعية لذوق العصر المترع بمستجدات الحضارة والتي وجهته إلى طابع السرعة والخفة في الأشكال الفنية المختلفة، وذلك بفعل انتقال الإنسان من نقاء البادية وما يتيحه من طول تأمل إلى زخم المدينة بتفاعلاتها المتسارعة، فظهرت المقطوعات الشعرية بدلا من القصائد الطوال، كما ظهر ذلك النوع من السرد القصير بدلا من الأساطير والسير الشعبية.

وثمة دافع خاص بالغرباء يثير فيهم رغبة الحكي والسرد، ذلك أن الغريب انفرد بذاته في غربته، حاملا في حناياها ذكرياته وهواجسه وأيامه وأحلامه وإخفاقاته وسقطاته وإنجازاته وبطولاته، فقرر أن يخرج بهذا الصراع الداخلي من حواره مع الذات إلى الآخر؛ وهذا يفسر وجود بعض القصص التي تحمل الطابع الغرائبي الذي يجوب بخيال المغترب إلى عوالم أبعد من ذلك العالم الواقعي، فضلا عن بعض القصص التي تصور نزوات الغرباء وسقطاتهم ومنهم أبو الفرج ذاته. لذا كان الغرباء حريصين على معايشة الآخر لتجاربهم النفسية عبر لقطات شعورية من حياتهم التقتطها ذاكرتهم ووضعتها في إطار سردي ليتجاوب معها الآخر. ولنتوقف فيما يلي أمام بعض النماذج السردية للحظات شعورية متمايزة في حياة الغرباء ذات طوابع مختلفة، وذلك من قبيل التمثيل لا الحصر، إذ تضيق الدراسة عن الإحاطة التامة بالنماذج القصصية المسرودة في الكتاب كافتها .

قصة غزلية

بطل هذه القصة هو أبو الفرج وصديقه الذي رافقه في إحدى رحلاته، وفتاة من فتيات النصارى، يقول أبو الفرج: "وخرجتُ أنا وأبو الفتح أحمد

بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله، ماضيَيْن إلى دير الثعالب، في يوم من سنة خمس وخمسين وثلاث مئة للنزهةِ ومشاهدة اجتماع النصارى هناك، والشرب على نهر يَزْدَجِرْد الذي يجري على باب هذا الدير. فبينا نحن نطوفُ الدير، ومعنا جماعةٌ من أولاد الكتّاب النصارى وأحداثهم، وإذا بفتاة كأنّها الدينارُ المنقوشُ كما يقال، تتمايل وتتثنّى كغُصن ريحان في نسيم شمال. فضربت بيدها إلى يد أبي الفتح وقالت: يا سيّدي، تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط بيت الشاهد. فمضينا معها، وبنا من السرور بها وبظَرفها وملاحةِ مَنْطقها ما الله به عالم. فلما دخلنا البيت كَشَفَتْ عن ذِراعٍ كالفضّةِ، وأومأت إلى الموضع، وإذا فيه مكتوب:

خرَجتُ يوم عيدِها في ثيابِ الرواهبِ
فَسَبَتْ باختيالها كل جاءٍ وذاهبِ
لِشقائي رأيتُها يومَ ديرِ الثعالبِ
تتهادى بنسوةٍ كاعبٌ في كواعبِ
هي فيهم كأنها الـ بَدْرُ بين الكواكبِ

فقلنا لها: أنتِ والله المقصودةُ بمعنى هذه الأبيات. ولم نشكّ أنها كتبت الأبيات، ولم تفارقنا بقية يومنا. وقلتُ فيها هذه الأبيات، وأنشدتها إيّاها ففرحت:

مرّتْ بنا في الدير خَمْصانَهْ ساحرةُ الناظرِ فتّانهْ
أبرزها الرهبانُ من خِدْرِه تعظّم الدير ورهبانهْ
مرّتْ بنا تَخْطِرُ في مَشْيه كأنّما قامتُها بانَهْ
هَبَّتْ لها ريحٌ فمالت بها كما تثنَّى غصنُ ريحانَه
فَتَيّمَتْ قلبي وهاجتْ له أحزانَه قَدْماً وأشجانَه

وحصل بينها وبين أبي الفتح عِشرة بعد ذلك. ثم خرج إلى الشام وتوفي بها، ولا أعرف لها خبر* بعد ذلك.(١٠٦)

فقد اتضحت في الخبر السابق معالم القصة القصيرة، من حيث تحديد الزمان والمكان، والشخصيات محدودة العدد، وعددها في القصة

ثلاث شخصيات، فضلا عن الاكتفاء بالإشارة إلى الأطراف الأخرى بقوله: (جماعة من أولاد النصارى)، لكونهم غير مؤثرين في تطور الحدث. كما استعان أبو الفرج بشعرية اللغة في الجانب السردي كمطلب من متطلبات التكثيف، خاصة فيما يتعلق بوصف الفتاة، حيث اعتمد على عنصر الصورة، ما يجنح بخيال المتلقي إلى أفق أرحب من مساحة السرد، وفي نهاية القصة استخدم أبو الفرج تقنية الاختزال الزمني ليختم قصته بنهاية مغلقة لبعض أشخاص القصة ومفتوحة للآخرين.

قصة المغامرة

ومن النماذج القصصية التي أوردها أبو الفرج ما طغى عليه طابع المغامرة، في قالب أشبه ما يكون بقصص الرحالة والمغامرين والجغرافيين الأوائل الذين اكتشفوا القارات والبحار والمدن، ومن ذلك قول أبي الفرج: "وحدَّثني أبو الحسين بن الشلمغاني قال: كان بالبصرة شيخ من ذوي الهيئات، وممن دوَّخ البلاد وقطع عمره في الأسفار. وكان يحدِّثنا بكل عجيبة، ويتحفُنا بكلّ غريبة. فحدَّثنا يوماً قال: ركبتُ في البحر في بعض السنين، فأفضى بنا السيرُ إلى موضعٍ لا نعرفُه ولا يعرفه المركّب. وطَرَحَنا الماءُ إلى جزيرةٍ فيها قومٌ على صورة الناس إلا أنَّهم يتكلَّمون بكلام لا يُفهم، ويأكلون من المأكل ما لم تجرِ به عادة الإنس. فاجتمعوا علينا، وأقبلوا يعجبون منَّا، وخفْناهم على أنفسنا، واستشعرنا الهلاك من طمعهم في قلَّتنا مع كثرتهم، ثم توكَّلنا على الله جلَّ وعزَّ وخرجنا نطلبُ في تلك المدينة ما نأكله ونشربه. فوجدنا الطراميس من خبز الدُّخْن ولحوماً كثيرة لا ندري ما هي. فاشترينا من ذلك الخبز واللحم وأظنُّه من لحوم الحيتان، ولهم أنبذةٌ لا ندري ما هي، يشربونها. ويضربون بطبلٍ عظيم، له في البحر دويّ. فبينا أنا أطوف في تلك المدينة إذ بصرتُ بكتابة عربيَّة على بابها، فتأمَّلتُها، فإذا هي: بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله خالقِ الخَلْق، وصاحبُ الرِزْق. ما أعجبَ قصَّتي وأعظم محنتي، أفضتني الخطوب وقصدتني النكوب حتَّى بلغتُ هذا الموضع المهيب، ولو كان للبُعْد غاية

هي أسحقُ من هذا المحل لبلّغني إليها ولم يقنع إلاّ بها. وتحت ذلك مكتوب:

مِنْ سِدَّةٍ لا يموتُ الفتى ولكنْ لميقاته يهلكُ

فسبحانَ مالكَ مَنْ في السما والأرضِ حقًّا ولا يُمْلَكُ

فاجتهدتُ بالمسألة عن الرجل وحاله، فلم يُفْهَمْ عني، ولا فهمتُ أحدٍ منهم، وأقلعنا في عبرِ تلك الليلة، وسلَّم اللهُ تعالى، وصرنا إلى بلاد اليمن.[١٠٧]

القصة الغرائبية

ذكر أبو الفرج خبرا عن أحد غرباء مصر خرج يقتفي أثر المطالب، وهي الكنوز التي تركها الملوك والسابقون ودفنوها في باطن الأرض، وقد خصص ابن إياس فصلا من فصول كتابه " نزهة الأمم في العجائب والحكم" عن تلك الدفائن عنوانه: "ذكر الدفائن والكنوز التي يسمونها أهل مصر المطالب" وجاء في كتابه نقلا عن المسعودي: "قال المسعودى : ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان، وما يوجد في الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها تحت الأرض وغيرها وقد أثبتنا جميع ذلك فى كتبنا".(١٠٨)

ولعل الصلة الوثيقة بين الاغتراب والسعي خلف المجهول ما جعلت أبا الفرج يضمن كتابه خبرا لأحد الغرباء خرج باحثا عن المطالب، وقد واجهته في رحلته أحداث مثيرة أضفت عليها جوا من الغرائبية والإثارة، يقول أبو الفرج: "حدَّثني أبو محمد حمزة بن القاسم قال: حدَّثني رجلٌ من أهل الفسطاط قال: كنتُ ممَّن يدرسُ كتب المطالب ويقفو آثارها. ويُسافر إلى مواضعها، أنا وجماعةٌ من أهل مصر. فوقع إلينا في بعض الكتب خبرُ مَطْلَبٍ عظيم الشأن في بلاد اليونانية، بينه وبين مصر مسيرة ثلاثة أيام في طريق غير مسلوك. فأخذنا صفه وتزوَّدنا وسِرنا بين آكامٍ وجبالٍ ورمالٍ خفناها، حتى إذا مضت ثلاثة أيام أشرفنا على سورٍ عظيمٍ منقور من حجرٍ أبيض كالثلج فيه تلميعُ أسود كالجنازير التي تكون على السور، فكبَّرنا الله جلَّ اسمه وحمدناه. فلما قربنا من أحدِ أركان الحصن إذا عليه كتابة في بياض الحجر بسواد: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول فلان بن فلان بن فلان: من وصل إلى هذا الموضع بعدي فليعجب من قصَّتي، وليرْثِ لمحنتي، خرجتُ هارباً من الإملاق، وتضايق الأرزاق، فعُدل بي عن السداد، وتهتُ في البلاد، وبلغ بي الدهر إلى هذا القصر :

فيا ليتَ شعري متى ينقضي عَنائي وتُكشفُ عنِّي المحنْ

شريداً طريداً قليلَ العزاءِ سحيقَ المحلِّ بعيد الوطنْ

فاستطرقنا أن تكون الغربة بلَّغتْ إنساناً إلى ذلك المكان. ثم درنا حول السور نطلب الباب، وإذا هو قد خفي علينا من نسج الرياح عليه الغبرة والقتام، ثم بانَ لنا، فلم نزل نكشف عنه حتى ظهر قفله وعتبتُه، وإذا هما مصراعان من جزع عليهما قفل ذهب عظيم، وإذا على الباب مكتوب :

قد بَنَيْنا وسوف نَفْنى ويَبْقى ما بَنينا من بَعْدنا أزمانا

ليس يبقى على الزمانِ سوى الله الذي لا نراه، وهو يرانا

فعجبنا من الشعر أيضاً. ولم نزل نعمل الحيلة في القفل حتى فششناه وفتحنا المصراعين، فحين فعلنا ذلك سمعنا صيحةً عظيمة هالتنا من داخل القصر، وجَلَبَةً أفزعتْنا، ودويًّا حيَّرنا. فتوقَّفنا عن الدخول. ثم علمنا أنَّ ذلك من عمل الجنّ. ثم رجعنا إلى صفة المطلب فوجدناها تدل على أنَّ فيه طِلَّسماً مخوفاً عظيم الشأن، فعلمنا أنَّ الأمر من جهته. فدخلنا فإذا أبنيةٌ قديمةٌ عظيمةٌ، وآثار مهولةٌ، وحيَّاتٌ أزلية. فتوقَّفنا، ثم لم نزل نتسلَّل إلى أن وصلنا إلى صحنٍ في صدره قبَّةٌ عظيمةٌ عاليةٌ من صخرٍ، يكون داخلها ثلاثين ذراعاً في مِثلها، في صدرها سريرٌ من ذهب، عليه شخصٌ ميت، حزرنا طوله خمسة عشر ذراعاً. وإذا في وسط القبَّة شخصٌ ماثلٌ من نحاس، تام القامة بعينين تدوران في رأسه، قبيح المنظر، وحركاتٍ في أطرافه، لا يشكّ من يراه أنَّه حيوان. وإذا الصيحة من جهته، والدَويُّ من تلك البقعة. وفي يده سيفٌ مُشهرٌ لم نرَ أتمَّ منه، وهو رافعٌ بيده لا يعمل شيئاً إلا أن يحرِّك عينيه، ويلتفت رأسه كالحذِر. حتى إذا وضع أحدنا رجله على أرض القبَّة في سائر أقطارها، أدارها كأسرع ما تدور رحى الماء، وضرب بالسيف يمنةً وشمالاً وتجاهاً ووراءً كما يفعل اللاعب بالمخراق، ضرباً أسرع من الريح. فمهما قَرُب منه قدّه وأهلكه من سائر نواحيه. وإذا الكنز في أرض القبة تحت الطِلّسْم، فلم نزل نعمل في

قلعه كلُّ حيلةٍ بالرجم بالحجارة، وغير ذلك، وهو أحكم من هذه الحال، إلى أن قَرُب الليل، وخفنا الأفاعي التي في القصر، فخرجنا ولم نحظَ إلاّ بقفل الذهب، فإنَّه كان فيه نحو خمس مئة مِثقال. وإذا على صدر الطلسم كتابةٌ يلوح فيها هذان البيتان :

تَعَبٌ يطولُ لطامعٍ في نَيْل ما أمسيتَ جامعة فقل لا تطمع

واسترزقِ الله العليّ مكانه ودعِ التطلُّبَ للمطالبِ واقْنَعِ

وانصرفنا راجعين إلى مصر، وآليتُ أن لا أسافر في طلب الكنوز بعدها.[١٠٩]

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة مع كتاب "أدب الغرباء" لأبي الفرج الأصفهاني، فيجدر بنا أن نوجز أهم ما أفضت به الدراسة من نتائج.

- تفرد كتاب "أدب الغرباء" في موضوعه؛ حيث جمع فيه أبو الفرج شجو الغرباء ونبض قلوبهم من خلال كتاباتهم على الحوائط والأحجار والأشجار والأبواب، بما أتيح لهم من أدوات الكتابة كالفحم والنفش بالسكين وغيرهما.

- ورد الكتاب في مصادر التراث بعناوين مختلفة الصيغ، فسماه ابن النديم: "أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب"، وورد عند الخطيب باسم: "آداب الغرباء"، وذكره ياقوت باسم "أدب الغرباء" مرة، و"أدباء الغرباء" مرة أخرى.
- قام الدكتور صلاح الدين المنجد بتحقيق الكتاب، وآثر اعتماد تسمية ابن النديم: "أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب"؛ معللا لذلك بكونه معاصرا لأبى الفرج، لكنه اكتفى بصدرها فقط، ونشر الكتاب للمرة الأولى بدار الكتاب الجديد في بيروت عام ١٩٧٢ م، بعنوان "أدب الغرباء".
- حصل المحقق على نسخة فريدة ولعلها الوحيدة في مكتبات العالم . على حد قوله . من مخطوطة (أدب الغرباء) للأصبهاني أعطاه إياها عميد الكلية كلية الإلهيات في طهران والمتخصص في الشعر العربي والفارسي.

- يعد كتاب "أدب الغرباء" المصدر الوحيد لكثير من الأشعار المثبتة فيه، نظرا لأنها لم تسمع من أفواه قائليها، ولم تسطر في بطون الكتب، وإنما خرجت من شرنقة الذات لتجوب فضاء الوجدان

البشري وتصبح متاحة للجميع، ولم يعن أحد بجمعها في مدونة واحدة ـ فيما أعلم ـ غير أبي الفرج.

- أسهم الكتاب في تصحيح تاريخ وفاة أبي الفرج؛ إذ المتداول بين المؤرخين أنه توفي عام ست وخمسين وثلاثمائة، بينما شكك ياقوت الحموي في هذا التاريخ مستشهدا بروايات من كتاب "أدب الغرباء" منها ذكر أبي الفرج لموت معز الدولة وتولية ابنه بختيار وكان ذلك سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وذكر أبو الفرج أن ذلك الحدث كان في شبابه. مما يؤكد أنه توفي بعد هذا التاريخ بسنوات عدة. بينما جزم المحقق أنه توفي بعد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، حيث إن أبا الفرج روى في كتابه حادثة وقعت في تلك السنة، ومن المحقق أن الكتاب دون بعد وقوع تلك الحادثة.
- أماط أبو الفرج في كتابه هذا اللثام عن وعي المبدع العربي بفن من فنون البشرية الأولى وهو فن الجداريات بأشكالها وأنواعها المبتكرة، إذ قامت الجداريات منذ أن عرفها الإنسان القديم بوظيفة توثيقية لكل ما يمر به في حياته اليومية، بينما انتقل المبدع العربي بالفن الجداري من طوره التوثيقي إلى طور الكتابة الإبداعية الذي ينم عن درجة من الرقي الفكري والحضاري، فضلا عن تعدد أماكن الكتابة وتنوع أدواتها وفق مقتضيات البيئة.
- حفر الأصفهاني ـ بعمله هذا ـ وجدان المهمشين والمنسيين من الغرباء في ذاكرة التاريخ، فاستحال الهامش متنا؛ إذ حاول هؤلاء المهمشون أن يخرجوا إلى دائرة الضوء بجذب كافة أطراف المجتمع إلى عمق بوتقة شعورهم، وأتى أبو الفرج ليكلل جهدهم بالنجاح ويخصص لهم مصنفا يجذبهم من خلاله إلى مركز المتن، ليجعل لهم مكانا مميزا في الذاكرة الثقافية العربية.
- ساوى أبو الفرج في حس الاغتراب بين الغرباء من المهمشين المجهولين، والأعلام المبرزين الذين أظهر لهم وجها لم يره الناس

من قبل، ما جعله يدرجهم في صفوف المهمشين، حيث التهميش الوجداني حينما يجد المرء نفسه غريبا في محل ألفته، ما يولد شعورا باغتراب الذات الذي يفوق في قسوته غربة المكان.

- كان الدافع إلى تصنيف الكتاب حالة الاغتراب النفسي التي يقاسيها أبو الفرج، فحاول أن يتأسى بأضرابه من الغرباء الذين نزحوا عن ديارهم مخلفين وراءهم الأهل والخلان، حاملين من الأشجان ما تنوء عن حمله صدورهم، فباحوا بأسرارهم وأودعوا شجوهم جدران الحانات والبساتين والمساجد والمعابد والشجر والحجر.
- جمع أبو الفرج فى كتابه ستة وسبعين خبرا، أخذها من عدة مصادر، وتلتقى جميعها فى تصوير أحوال الغرباء، فبعضها كتابات قرأها بنفسه، وبعضها أخبار رويت له.
- كان أبو الفرج ـ فيما روي له من أخبار ـ حريصا على ذكر سند الرواية حتى يصل إلى مصدر الخبر، لكنه لم يجهد نفسه فى التثبت من صحتها، كما لم يبد رأيه فيما جمع من أخبار، ولم يعقب عليها بشرح أو رفض أو قبول، حتى وان غلبت على بعضها مسحة غرائبية؛ إذ أن هدفه من الكتاب رسم صورة كاملة لأحوال الغرباء كما صورتها آدابهم، ولم تكن غايته تأريخية أو توثيقية.

- تنوعت طوائف الغرباء في الكتاب، فهناك غرباء الملوك، وغرباء الشعراء، وغرباء المتصوفة، وغرباء النساء، فضلا عن مجهولي الغرباء، وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتي أبو الفرج نفسه.
- أتت الغالبية العظمى من آثار الغرباء شعرا فضلا عن السياق السردي للخبر، وأتت بعض أخبارهم مزيجا من الشعر والنثر، بينما أتى القليل منها نثرا خالصا.
- تتفق الكتابات النثرية للغرباء في أسلوبها مع طريقة عبد الحميد بن يحيى الكاتب رائد مدرسة الترسل الصناعي؛ حيث إيثار الجمل

القصيرة، واستخدام الصنعة اللفظية في غير تكلف يذهب برواء المعنى، ففيها االسجع والازدواج والتوازن القائم على تعادل الفقرات، وتختلف كتاباتهم عن أسلوب عبد الحميد الكاتب في كون الأخير يميل إلى الإطناب بينما تتسم كتابات الغرباء بالإيجاز، لضيق المساحة المتاحة لهم، ولاقتراب عباراتهم من سياق الحكمة أحيانا، مما يحتم عليهم الإيجاز.

- جاء شعر الغرباء في صورة مقطوعات شعرية، نظرا لما تقتضيه طبيعة التجربة الشعورية لغرباء الشعراء؛ إذ تفرض على الشاعر تكثيف شعوره في كلمات موجزة أكثر ما تكون وضوحًا، وأشد ما تكون صدقًا، وأعمق ما تكون عاطفة وانفعالًا.
- نطقت آثار الغرباء بأطياف من التجارب الوجدانية، كالحنين إلى الوطن، والشكوى، والاسترحام، والاستعلاء، والحكمة، والتجلد، ورثاء الذات، والتشبيب، والامتنان.
- جعل الغرباء من الفضاء الخارجي حلقة وصل بين بعضهم البعض، فكثيرا ما نرى غريبا يكتب أثرا ويمضي، ويأتي غريب آخر ليكتب تعليقا على ذلك الأثر شعرا أو نثرا، في المكان نفسه. ليكوِّنوا ما أطلقنا عليه مجازا "التوقيعات الشعرية".

الهوامش

(١) الفهرست لأبي الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعروف بابن النديم، المحقق: إبراهيم رمضان،الناشر: دار المعرفة بيروت – لبنان،الطبعة: الثانية ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ مـ ص ١٤٤.

(٢) تاريخ بغداد وذيوله، الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت،الأولى، ١٤١٧هـ،٣٩/١١

(٣) معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ياقوت الحموي، ت. د. إحسان عباس، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، ط/ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج٤، ص ١٧٠٧، ١٧٠٨.

(٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (المتوفى: ٦٨١هـ، ت. :إحسان عباس ط/ دار صادر – بيروت، ٣/ ٣٠٨.

(٥) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (المتوفى: ١٠٦٧هـ)ط/ مكتبة المثنى – بغداد ١٩٤١م ، ٤٣/١.

(٦) الفهرست، ص ١٤٤.

(٧) مؤلفات أبي الفرج الأصبهاني وآثاره – محمد خير الشيخ موسى، موقع ملتقى أهل الحديث، http://www.ahlalhdeeth.com

(٨) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصبهاني مقدمة المحقق: السيد أحمد صقر ط/:دار المعرفة، بيروت ص ١٠، بتصرف.

(٩) شرح ديوان الحماسة ، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، دار القلم – بيروت، ص٣٣٠، ٣٣١.

(١٠) مقاتل الطالبيين ص ٨،٩ بتصرف.

(١١) مقدمة المحقق لكتاب أدب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني، ط١، ت: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٢م. ص ٨.

(١٢) انظر المصدر السابق، ص ١٦.

(١٣) أدب الغرباء، ص ٢١.

(١٤) انظر، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٧٠٧.

(١٥) انظر مقدمة المحقق، ص ١٠:١٤.

(١٦) انظر، جماليات الفن الجداري، أ. د. سلوى محسن حميد عبدالغني الطائي، مقال منشور على موقع كلية الفنون الجميلة، جامعة بابل http://www.uobabylon.edu.iq

(١٧) أدب الغرباء، ص ٢١.

(١٨) "جوليا كريستيفا أديبة وعالمة لسانيات ومحللة نفسية وفيلسوفة ونسوية فرنسية من أصل بلغاري. وهي مؤسِسة جائزة سيمون دي بوفوار، أصبح لكريستفا تأثير في التحليل النقدي الدولي، من الناحية النظرية الثقافية والنسوية بعد نشر كتابها الأول Semeiotikè في عام ١٩٦٩. أنتجت كمية هائلة من الأعمال وتشمل الكتب والمقالات التي تعالج التناص، والسيميائية، والتهميش، في مجالات اللسانيات، ونظرية الأدب والنقد ، والتحليل النفسي والسيرة، والسيرة الذاتية والسياسية والثقافية و تحليل الفن وتاريخ الفن.

(١٩) الغربة والغرباء في ديوان الشعر العربي، د. جابر قميحة، دراسة منشورة على موقع رابطة أدباء الشام، http://www.odabasham.net

(٢٠) الحنين إلى الأوطان، محمد بن سهل بن المرزبان الكرخي البغدادي. تحقيق: *جليل العطية*، انظر مقدمة المحقق.

(٢١) أدب الغرباء، ص (٣٢)، (٣٣)، (٦٤)، (٧٢)، (٧٤).

(٢٢) أدب الغرباء، ص (٢٣)، (٣٤)، (٣٦)، (٦٥).

(٢٣) أدب الغرباء، ص ٥٨.

(٢٤) أدب الغرباء، ص (٣٨)، (٤٣)، (٤٥)، (٤٧)، (٥١)، (٥٤)، (٥٦)، (٥٩)، (٦٠)، (٦٢)، (٦٤)، (٧٦)، (٨٠)، (٨٢)، (٨٤)، (٨٦)، (٨٨)، (٩٤)، (٩٩).

(٢٥) أدب الغرباء، ص (٤١)، (٦٠)، (٦٤)، (٧٠)، (٧١).

(٢٦) أدب الغرباء، ص (٣٠)، (٣٩)، (٤٢)، (٥١)، (٥٥)، (٦٣)، (٦٩)، (٧٢)، (٨٧)،(٩٣)، (٩٧)، (٩٨).

(٢٧) أدب الغرباء، الخبر السادس، ص ٢٨.

(٢٨) أدب الغرباء، ص ٣٢،٣٣.

(٢٩) أدب الغرباء، ص٣٣،٣٤.

(٣٠) أدب الغرباء، الخبر الثالث عشر، ص ٣٤:٣٦.

(٣١) أدب الغرباء، ص ٥٩.
(٣٢) أدب الغرباء، ص ٥١،٥٢.
(٣٣) أدب الغرباء، ص ٧٧،٧٨.
(٣٤) أدب الغرباء، ص ٢٨، ٢٩.
(٣٥) أدب الغرباء، ص ٣٣.
(٣٦) تم ترقيم الخبر في الكتاب برقم (٤١) بطريق الخطأ، والصواب (١٤).
(٣٧) أدب الغرباء، ص ٣٦،٣٧.
(٣٨) أدب الغرباء، ص ٢٦، ٢٧.
(٣٩) أدب الغرباء، ص٣٣.
(٤٠) أدب الغرباء، الخبر العشرون، ص ٤٢.
(٤١) أدب الغرباء، ص ٢٣،٢٤.
(٤٢) أدب الغرباء، الخبر الرابع والعشرون، ص٤٥.
(٤٣) أدب الغرباء، ص ٢٣.
(٤٤) أدب الغرباء، ص ٤٦،٤٧.
(٤٥) سورة إبراهيم الآية ١٣.
(٤٦) سورة العنكبوت الآية (٢٦)
(٤٧) سورة الصافات (٩٩).
(٤٨) انظر، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ط/ دار الفكر، الجزء الخامس عشر ص: ٨٩.
(٤٩) رواه مسلم في: ١ – كتاب الإيمان، ٦٥ – باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنه يأرز بين المسجدين، حديث رقم (١٤٦)، (١٣١/١).
(٥٠) رواه الطبراني في معجمه الكبير، في ترجمة أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي، رواية عبد الله بن يزيد بن آدم عنه، وفي أوله سياق طويل في التحذير من المراء وبيان اختلاف الأمة رقم الحديث (٧٦٥٩)، (١٧٨/٨-١٧٩).
(٥١) الجامع الصحيح للإمام البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ٣.

(٥٢) حزورة – بوزن قسورة –: معناها: الرابية الصغيرة، أو التل الصغير، وهي موضع بمكة عند باب الحناطين (النهاية١/٣٨٠) وهي ما يعرف اليوم باسم "القُشَاشيّة": مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس ، وكان – ولا يزال– سوقا من أسواق مكة . (معجم المعالم الجغرافية في السيرة ص ٩٨) . أخرجه الترمذى – وقال :حسن غريب صحيح – في كتاب: المناقب ، باب : في فضل مكة ٥/٦٧٩(٣٩٢٥)

(٥٣) صحيح البخاري، كتاب المرضى ، باب عيادة النساء الرجال ، الحديث رقم ٥٣٣٠

(٥٤) الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية، لأبي حيان التوحيدي ، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي ،وكالة المطبوعات، الكويت ، عام ١٩٨١م. رسالة "يا" ص١١٥، ١١٦.

(٥٥) بهجة المجالس وأنس المجالس"؛ لابن عبد البرّ، ١/٤٥، موقع الوراق، http://www.alwarraq.com

(٥٦) تجربة الوجود.د. سالم حميس: مجلة فصول سنة ١٩٩٥. ص ٥٦.

(٥٧) السخرية بين تهكم الجاحظ واغتراب أبي حيان التوحيدي، أ. د. بركات محمد مراد، موقع التراث والبحوث اليمني، http://yemenhrc.net

(٥٨) ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ط٢،(دمشق: مطبعة الكاتب العربي، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤م)، ٢٤٨.

(٥٩) في الحنين إلى الوطن العراقي د/ علي ثويني، موقع النور http://www.alnoor.se/article.asp?id=٢٣١٢٦٧#sthash.WhOkujve.dpuf.

(٦٠) المستطرَف في كلّ فنٍّ مستظرَف/ شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي/ ط٣ – دار صادر، ص ٣٧٥.

(٦١) أدب الغرباء، الخبر الخامس عشر، ص ٣٧:٣٩.

(٦٢) أدب الغرباء، الخبر لخامس والخمسون، ص ٧٣،٧٤.

(٦٣) أدب الغرباء، ص ٢٣

(٦٤) انظر، البلدان، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه ، ت: يوسف الهادي، ط/بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م ج ١، ص ٣١٥.

(٦٥) أدب الغرباء، ص ٢٣،٢٤.
(٦٦) أدب الغرباء، ص٢٦:٢٤.
(٦٧) أدب الغرباء، الخبر لحادي والخمسون، ص ٦٤:٦٦. بتصرف
(٦٨) أدب الغرباء، الخبر الثامن والثلاثون، ص ٥٧، ٥٨.
(٦٩) أدب الغرباء، الخبر لثاني والأربعون، ص ٦٠،٥٩.
(٧٠) جدلية الاغتراب فى الشعر الصوفى، شعبان أحمد بدير، دراسة منشورة على الموقع الإليكتروني ديوان العربwww.diwanalarab.com

(٧١) أدب الغرباء، الخبر السبعون، ص ٩٠، ٩١.
(٧٢) أدب الغرباء، الخبر الرابع والخمسين، ص ٧٢،٧٣.
(٧٣) أدب الغرباء، الخبر التاسع عشر، ص ٤١، ٤٢.
(٧٤) أدب الغرباء، الخبر الحادي والعشرون، ص ٤٢،٤٣. * وعلق المحقق على اضطراب الصياغة في الخبر بقوله: "كذا في الصل. والعبارة مضطربة في آخرها. ولعله أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم القاضي".
(٧٥) أدب الغرباء، الخبر الثاني والثلاثون، ص ٥٢.
(٧٦) أدب الغرباء، الخبر الثاني عشر، ص ٣٣،٣٤.
(٧٧) أدب الغرباء، الخبر التاسع عشر، ص ٤٢.
(٧٨) أدب الغرباء، الخبر الخامس عشر، ص ٣٨، ٣٩.
(٧٩) أدب الغرباء، الخبر الخامس العشرون، ص ٤٦.
(٨٠) أدب الغرباء، الخبر السابع، ص ٢٩،٣٠.
(٨١) أدب الغرباء، الخبر العاشر، ص ٣٣.
(٨٢) أدب الغرباء، الخبر الرابع عشر، ص ٣٦،٣٧.
(٨٣) أدب الغرباء، الخبر الرابع الأربعون، ص ٦٢،٦٣.
(٨٤) أدب الغرباء، الخبر التاسع عشر، ص ٤٢.
(٨٥) أدب الغرباء، الخبر التاسع العشرون، ص ٥١.
(٨٦) أدب الغرباء، الخبر الثلاثون، ص ٥١.
(٨٧) أدب الغرباء، الخبر السابع عشر، ص ٤٠.
(٨٨) أدب الغرباء، الخبر الخامس والثلاثون، ص ٥٥.

(٨٩) **أدب الغرباء، الخبر السابع والثلاثون، ص ٥٦،٥٧.**
(٩٠) **أدب الغرباء، الخبر الثامن عشر، ص ٤١.**
(٩١) **أدب الغرباء، الخبر الحادي والعشرون، ص ٤٣.**
(٩٢) **أدب الغرباء، الخبر لثاني والأربعون، ص ٦٠.**
(٩٣) **أدب الغرباء، الخبر الحادي والثلاثون، ص ٥١،٥٢.**
(٩٤) **أدب الغرباء، الخبر الحادي والعشرون، ص ٤٤.**
(٩٥) **أدب الغرباء، الخبر الثامن والستون، ص ٨٩.**
(٩٦) **أدب الغرباء، الخبر السابع والثلاثون، ص ٥٦،٥٧.**
(٩٧) **أدب الغرباء، الخبر الحادي والخمسون، ص ٦٥،٦٦.**
(٩٨) **أدب الغرباء، الخبر السادس والأربعون، ص ٦٣.**
(٩٩) ديوان أبي الطيب المتنبي : بشرح أبي البقاء العكبري ، المسمى التبيان في شرح الديوان، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الانباري، وعبد الحافظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ١٩٧٨، ج٢ ،ص ٤٠.
(١٠٠) **أدب الغرباء، الخبر السابع والأربعون، ص ٦٤.**
(١٠١) **في الشعر العباسي الرؤية والفن، د. عزالدين إسماعيل، ط/ المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م. ص ٣٩٥، ٣٩٦.**
(١٠٢) **أدب الغرباء، الخبر الثامن، ص ٣٠،٣١.**
(١٠٣) **أدب الغرباء، الخبر .الثالث والأربعون، ص ٦٠، ٦١.**
(١٠٤) **أدب الغرباء، الخبر .الثالث والخمسون، ص ٧١، ٧٢.**
(١٠٥) **أدب الغرباء، الخبرالسادس والستون، ص ٨٧، ٨٨.**
(١٠٦) **أدب الغرباء، الخبر الثالث عشرن ص ٣٤:٣٦، * وردت كلمة "خبر" في الكتاب بالرفع وصوابها النصب على المفعولية، ولعلها من قبيل الخطأ الطباعي .**
(١٠٧) **أدب الغرباء، الخبر الثامن عشر، ص ٤٠،٤١.**
(١٠٨) **نزهة الأمم في العجائب والحكم، ابن إياس، ت: الدكتور محمّد زينهم محمّد عزب، الناشر: مكتبة مدبولي. ص ٦٠.**
(١٠٩)**أدب الغرباء، الخبر الثاني والخمسون، ص ٦٨:٧١.**

ثبت المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : كتب السنة

١ ـ صحيح البخاري.

٢ ـ صحيح مسلم.

٣ ـ الطبراني.

ثالثا : المصادر والمراجع

١ ـ أدب الغرباء ، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعروف بابن النديم، المحقق: إبراهيم رمضان،الناشر: دار المعرفة بيروت لبنان،الطبعة: الثانية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ مـ .

٢ ـ الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية، لأبي حيان التوحيدي ، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي ،وكالة المطبوعات، الكويت ، عام ١٩٨١م. رسالة "يا"

٣ ـ البلدان، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه ، ت: يوسف الهادي، ط/بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ج ١.

٤ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس"؛ لابن عبد البرّ، ١/٤٥، موقع الوراق، http://www.alwarraq.com

٥ ـ تاريخ بغداد وذيوله، الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت،الأولى، ١٤١٧هـ.

٦ ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ط/ دار الفكر، الجزء الخامس عشر.

٧ ـ جدلية الاغتراب فى الشعر الصوفى، شعبان أحمد بدير، دراسة منشورة على الموقع الإليكتروني ديوان العرب www.diwanalarab.com

٨ ـ جماليات الفن الجداري، أ. د. سلوى محسن حميد عبدالغني الطائي، مقال منشور على موقع كلية الفنون الجميلة، جامعة بابل http://www.uobabylon.edu.iq

٩ ـ الحنين إلى الأوطان، محمد بن سهل بن المرزبان الكرخي البغدادي. تحقيق: *جليل العطية*، انظر مقدمة المحقق.

١٠ ـ ديوان أبي الطيب المتنبي : بشرح أبي البقاء العكبري ، المسمى التبيان في شرح الديوان، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الانباري، وعبد الحافظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ١٩٧٨، ج٢ .

١١ ـ السخرية بين تهكم الجاحظ واغتراب أبي حيان التوحيدي، أ. د. بركات محمد مراد، موقع التراث والبحوث اليمني، http://yemenhrc.net

١٢ ـ شرح ديوان الحماسة ، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، دار القلم – بيروت.

١٣ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ابن رشيق القيرواني ، ط٢،(دمشق: مطبعة الكاتب العربي، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤م .

١٤ ـ الغربة والغرباء في ديوان الشعر العربي، د. جابر قميحة، دراسة منشورة على موقع رابطة أدباء الشام، http://www.odabasham.net

١٥ ـ في الحنين إلى الوطن العراقي د/ علي ثويني، موقع النور http://www.alnoor.se/article.asp?id=٢٣١٢٦٧#sthash.WhOkujve.dpuf

١٦ ـ في الشعر العباسي الرؤية والفن، د. عزالدين إسماعيل، ط/ المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

١٧ ـ لفهرست ، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعروف بابن النديم، المحقق: إبراهيم رمضان ، الناشر: دار المعرفة بيروت – لبنان،الطبعة : الثانية ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ مـ .

١٨ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (المتوفى: ١٠٦٧هـ)ط/ مكتبة المثنى – بغداد ١٩٤١م .

١٩ ـ المستطرَف في كلّ فنٍّ مستظرَف/ شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الأبشيهي/ ط٣ – دار صادر .

٢٠ ـ معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ياقوت الحموي، ت. د. إحسان عباس، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، ط/ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج٤ .

٢١ ـ مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصبهاني مقدمة المحقق: السيد أحمد صقر ط/:دار المعرفة، بيروت .

٢٢ ـ مقدمة المحقق لكتاب أدب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني، ط١، ت: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٢م.

٢٣ ـ مؤلفات أبي الفرج الأصبهاني وآثاره – محمد خير الشيخ موسى، موقع ملتقى أهل الحديث، http://www.ahlalhdeeth.com

٢٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (المتوفى: ٦٨١هـ)، ت. :إحسان عباس ط/ دار صادر – بيروت، ٣.

رابعا : الدوريات

١ ـ مجلة فصول سنة ١٩٩٥.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحـة
المقدمة	٥٠٧
التمهيد عنوان الكتاب	٥١٢
المؤلف	٥١٤
مخطوطة الكتاب	٥١٧
المبحث الأول: إضاءة على كتاب أدب الغرباء	٥١٨
أهمية الكتاب	٥١٩
فكرة الكتاب وجذب الهامش إلى المتن	٥٢١
سبب تأليف الكتاب	٥٢٣
أدوات الكتابة	٥٢٤
أماكن الكتابة	٥٢٥
مصادر الكتاب	٥٢٧
المبحث الثاني: ملامح نحيب الذات في أدب الغرباء	٥٣٦
الغربة مفهومها وجذورها التاريخية	٥٣٧
الشعر وطن الغرباء	٥٤٢
فئات الغرباء	٥٤٤
وجدانيات الغرباء	٥٥٦

الموضـــــــوع	الصفحـة
المبحث الثالث: الظواهر الفنية في أدب الغرباء	٥٦٤
السمات الأسلوبية لنثر الغرباء	٥٦٥
السمات الفنية لشعر الغرباء	٥٦٧
حواريات الغرباء	٥٦٨
النزعة القصصية	٥٧١
الخاتمة	٥٧٨
الهوامش	٥٨٢
ثبت المراجع المصادر	٥٨٩
الفهرس	٥٩٣

* * *